الفصل الرابع

الحصان الوهمي

التهديد المستمر للقومية الهندوسية

«كن حكيماً يا راما. فلا يوجد عالم سوى هذا العالم، بالتأكيد».

نصيحة قدمها إلى راما راهب متشكك،
في الملحمة الهندوسية «رامايانا»[1]

لم أسمع عن «البيولوجيا المستقبلية» من قبل. لكن ظل هذا العلم يسحرني مدة ساعتين. كنت في مدينة ناغبور في وسط الهند، في المنزل الرحب لصناعي ثري تصنع شركته مواد التغليف. كان صديقه ومرشده الروحي، الدكتور راماتشاندرا توبكاري، هو الذي يتحدث معظم الوقت. الدكتور توبكاري مهندس متقاعد، وأحد أبرز المفكرين في «عائلة» الجماعات القومية الهندوسية الكبيرة في الهند. أما العائلة الأم فهي راشتريا سوايامسفاك سانغ» (منظمة المتطوعين الوطنيين) التي تضم عدداً يتراوح بين مليونين وستة ملايين عضو، اعتماداً على مصدر المعلومات (فهي لا تنشر بيانات مفصلة بعدد الأعضاء). حتى الرقم الأدنى يجعل المنظمة ثاني أكبر حركة سياسية في العالم، بعد الحزب الشيوعي الصيني. من المنظمات التي خرجت من رحمها، حزب بهاراتيا جاناتا القومي الهندوسي، الذي قاد حكومة ائتلافية في الهند بين عامي 1998 – 2004.

توبكاري، الرجل الرقيق الكلام، يحرر مجلة المنظمة الفكرية ويرأس «معسكر تدريب الضباط»، وهو تجمع سنوي شبه عسكري لكبار المتطوعين يقام في ناغبور كل صيف. حسبت أن آراءه قد تزودني برؤية أفضل إلى أسلوب تفكير القوميين الهندوس. كان اليوم قائظاً بل من أشد أيام السنة حراً في مدينة تعد من أكثر مدن الهند حرارة، وتطلب الأمر

بعض الوقت كي أستعيد توازني بعد أن شعرت وكأن الشارع حمام بخار تركي لاهب. بدأ توبكاري الحديث بتعريف البيولوجيا المستقبلية: علم يمنحك المفتاح الفكري الرئيس لفهم تطور الجنس البشري. وقال إن الدماغ مقسم إلى فصين اثنين: الجانب الأيمن مجهز للتعامل مع التنوع، والأيسر للتعامل مع الوحدة. الإنسان الهندي النمطي يمتلك «الجانب الأيمن من الدماغ»، والإنسان الأوروبي النمطي يمتلك «الجانب الأيسر من الدماغ»، مع أنه يقر باستثناءات عديدة تشذ عن هذه القاعدة. الثقافات التي يهيمن عليها الجانب الأيمن من الدماغ تتفوق في التعامل مع الأفكار المعقدة وتميل نحو المجتمع الديمقراطي اللامركزي. وأدمغة أهلها أصيلة لكن غير منظمة. أما أولئك الذين يكون الجانب الأيسر من الدماغ لديهم أقوى فهم أكثر انضباطاً لكنهم يميلون إلى إقامة مجتمعات استبدادية ومركزية. ويتفوقون في التنظيم لكنهم يفتقرون إلى الخيال. الهندوس من فئة الجانب الأيمن من الدماغ، في حين أن المسلمين من فئة الجانب الأيسر. الهنود المؤمنون بتعدد الآلهة من فئة الجانب الأيمن، والأوروبيون الموحدون من فئة الجانب الأيسر؛ برمجيات (software) التطوير البشري تأتي من الهند. والعتاد (hardware) يأتي من الغرب. سألني توبكاري: «هل تفهمني؟». لقد فهمته بالتأكيد.

بعد الاستقلال، ضلت الهند سواء السبيل لأنها خضعت لحكم أشخاص تطور لديهم الجانب الأيسر من الدماغ إلى حد مفرط، بعد أن تلقوا تعليمهم في الغرب، وآمنوا بالأفكار المبسطة، مثل الدستور العلماني والمجتمع الصناعي. لقد أبعدوا الهند عن ذاتها. لكن الهند الآن تعود ببطء إلى حالتها الذهنية الطبيعية، حيث يصبح التنوع والتعقيد و(التعبير الجديد) «فصل التكتل الجماعي»، القوى الصاعدة مرة أخرى[2]. إعادة الهيكلية عبر فصل التكتل الجماعي والتقسيم إلى أجزاء تعبر عن الصناعات المحلية الهندية الصغيرة (صناعة الأكواخ)، التي سخرت إبداع الهنود من أصحاب الجانب الأيمن من الدماغ، مقابل التنظيم الصارم للمصانع الكبرى، الذي «يزرب» ضحاياه في حظيرة أسلوب حياة الجانب الأيسر المخدر للدماغ. البندول العالمي يميل الآن عائداً إلى طريقة الهند. «كثير من الناس في الغرب وحتى في الهند يفشلون في إدراك هذه الحقيقة»، على حد قول توبكاري.

كانت الهند مجتمعاً متطوراً قبل زمن طويل جداً من استعمار المسلمين والأوروبيين. كان لدينا اقتصاد متطور منذ آلاف السنين. لقد قمنا بتجزئة إنتاج النفط، وكان لدينا طب وعلم على درجة عالية من التطور، ومستوى معيشة مرتفعاً. الحضارة ولدت في الهند قبل عشرة آلاف عام على الأقل ثم انتشرت منها إلى بقية العالم. هندستان هي النموذج المصغر للكون. وهي تضم التناقضات والميول والنزعات كلها. الآن، دار التاريخ دورة كاملة. وتحتل الهند مرة أخرى موقعاً يمكنها من تقديم العون إلى العالم.

لابد أن أمارات القلق ظهرت على وجهي، لأن الدكتور توبكاري كان ينظر إلي برقة وتسامح. وشعرت بصداع أصاب نصفي دماغي الأيمن والأيسر كليهما. قال بلطف: «المسألة معقدة ويصعب فهمها دفعة واحدة. هل تريد مزيداً من عصير الليمون؟».

أصول ثقافة الهند قديمة فعلاً. فواحدة من أوائل حضارات العالم وجدت في وادي السند (باكستان الحالية) بين عامي 3100 - 1700 ق. م. وتزامنت مع ثقافات المدن - الدول المبكرة في بلاد الرافدين (العراق اليوم)، ووادي يانغتسي في الصين. لكن خلافاً للحضارتين، لم يتمكن العلماء من فك شيفرة الكتابة المحفورة على الأواني الفخارية والأختام التي اكتشفت في وادي السند في المواقع الأثرية لحضارة الهارابا*. ومع أن الكتابة الهارابية تبقى غامضة ومعقدة ومراوغة، إلا أن العلماء كشفوا بعض السمات المثيرة والمغرية لتلك الحضارة: فقد حافظ سكانها على أكثر أنظمة الصرف الصحي تقدماً في العالم القديم؛ وتمتعوا بثقافة موحدة إلى حد مدهش عبر عشرات المدن التي تفصل بينها مئات الأميال وتباعد بينها القرون؛ وانشغلوا بتخطيط المدن، ونسخوا الشبكة المعيارية للطرق والشوارع في كل مدينة؛ وحافظوا على نوع من الجمهورية الاتحادية المستقلة من دون نظام ظاهر للملكية أو الأسر الحاكمة؛ ودفنوا موتاهم؛ ولم يعرفوا الحصان. وتحظى هاتان السمتان الأخيرتان بأهمية خاصة (3).

في مرحلة ما من أوائل الألفية الثانية قبل الميلاد، اختفى الهارابيون من الوجود. في البداية حسب المؤرخون أن مدنهم قد اجتاحها غزاة آريون من الفرسان بعد أن اكتسحوا

* اكتشف أول موقع في هارابا، قرب لاهور. أما أضخم موقع في موهينجودارو («تلة الأموات») فقد بدأ التنقيب فيه في عشرينيات القرن الماضي.

شبه الجزيرة من آسيا الوسطى بين عامي 2000 – 1500 ق.م. وما يزال بعضهم يقدم الحجة على أن ذلك ما حدث - وثمة أدلة في مواقع أثرية تضم أكواماً من العظام البشرية المحطمة، ربما تثبت أن الهارابيين لاقوا مصيرهم بطريقة عنيفة. لكن مؤرخين آخرين يعتقدون الآن أن حضارة الهارابيين اندثرت عندما بدأ الآريون يهاجرون إلى الهند - سلمياً- في أوائل الألفية الثانية. الروايتان كلتاهما تعتمدان على أدلة أثرية (عملات، وجرار، وعظام، وأعمال من الآجر، وأختام من الفخار)، وأدلة أخرى متضمنة في الأدبيات المتأخرة. وتركز الجدل الخلافي على كيفية وصول الشعوب التي تتكلم الآرية إلى الهند، لا على حقيقة وصولها أو توقيته. هنالك تداخل واسع بين الروايتين. لكن السؤال المتعلق بما إذا كانت حضارة الهارابيين أصلاً في طور الانحطاط أم هل دفعهم الغزاة الآريون إلى غياهب النسيان، يبقى دون إجابة. وربما لن تظهر إجابة شاملة عنه. لكن الأكاديميين يتفقون على الأقل على قواعد الأدلة البرهانية للنقاش حوله.

في عام 1998، انقلب هذا الفرع المعرفي رأساً على عقب حين وصل حزب بهاراتيا جاناتا إلى سدة الحكم. فقد قدم مفكرو الحركة القومية الهندوسية، دون أدلة دامغة لكن بحوافز واضحة، الحجة على أن الآريين قد أتوا في الحقيقة من الهند وهاجروا إلى بقية أرجاء العالم. ولذلك فلابد أن يكون الهارابيون أنفسهم من الآريين. فضلاً عن ذلك، أكد هؤلاء أن حقبة الهارابيين وحقبة الفيدا (النصوص الهندوسية المقدسة) اللاحقة يجب دفعهما إلى الوراء بضعة آلاف من السنين. أما الهدف فكان واضحاً لا لبس فيه: ترسيخ الزعم بأن الهند هي المهد الوحيد للحضارة، التي يعود تاريخها إلى حقب أقدم بكثير تسبق حضارات الإغريق والصينيين والبابليين وغيرهم. لقد صدرت الهند الحضارة إلى باقي العالم عبر الهجرة. وإن صح ذلك كله، فإن هذه النظرية لن تكتفي بتحطيم المعارف الأكاديمية المقبولة عن الهند القديمة فقط، بل تدك معظم ركائز علم الآثار التقليدي في بقية أرجاء العالم. النظرية جريئة دون ريب، لكنها تفتقر إلى عنصر حيوي واحد: دعم العلماء والباحثين المعتمدين الذين تحظى آراءهم بالقبول والاحترام.

أنفق مورلي مانوهار جوشي، وزير التعليم (من حزب بهاراتيا جاناتا) بين عامي 1998 – 2004، معظم ميزانيته على مشروعات كان يأمل منها إعطاء هذه النظرية مزيداً من

الاحترام والقبول. ولذلك حشد جوشي، أستاذ الفيزياء السابق في جامعة الله أباد ونصير منظمة المتطوعين الوطنيين المتحمس طوال حياته، قبل أن يدخل معترك السياسة، حشد مجالس مختلف إدارات الهيئات العلمية المختصة بالتاريخ وعلم الاجتماع في نيودلهي بالمؤيدين لآرائه. أما أولئك العلماء والباحثون الذي لم يوجهوا أشرعتهم لتناسب الرياح الجديدة فلم تجدد عقود عملهم. بعضهم، مثل روميلا ثابار، أشهر مؤرخة كلاسيكية في الهند، تعرض لحملة كراهية شخصية من أعضاء المنظمة. في حين حاول الأعضاء المغتربون في فروع المنظمة منع ثابار من إلقاء المحاضرات أثناء السنة التي قضتها في الولايات المتحدة بوصفها باحثة زائرة. «المشروعات البحثية همشت كلها تقريباً. وجند الجميع لإثبات فكرة لا يدعمها الدليل التجريبي»، كما قالت ثابار(4).

مع أن الرواية الهندوسية القومية لتاريخ الهند قد فشلت حتى الآن في تحقيق أي اختراق أكاديمي، إلا أن وجهة نظرها تجذرت في التيار السائد للرأي العام. فقد أعيدت كتابة الكتب المدرسية لتقديم نظرية الآريين - الهارابيين بوصفها حقيقة تاريخية، ثم وزعت على آلاف المدارس في طول البلاد وعرضها. وتزعم هذه الكتب أن أدلة جديدة ظهرت لتثبت أن الهارابيين عرفوا الحصان فعلاً، وهذا يعني أن حضارة وادي السند كانت آرية حتماً. ودعماً لهذا التوكيد، ذكرت الكتب المدرسية اكتشاف اثنين من الأكاديميين منذ مدة لرسم واضح لا لبس فيه لحصان على أحد الأختام الطينية الهارابية(5). ولم يبد من المهم (في عام 2000) افتضاح حقيقة أن الاكتشاف كان مزوراً. فقد أظهر مايكل فيتزل، أستاذ السنسكريتية في جامعة هارفارد، كيف تلاعب الرجلان بصور صمماها بواسطة الكمبيوتر لتبين رسماً لحصان. لكن الكتب المدرسية لم تسحب أو تعدل.

قدمت الكتب المدرسية التي وضعها حزب بهاراتيا جاناتا أيضاً نظرة جديدة متحيزة لحقب التاريخ الهندي الأحدث عهداً. على سبيل المثال، أظهرت أن الإسلام فتح الهند بحد السيف أثناء العصور الوسطى دون الإشارة إلى انتشاره السلمي عبر الروابط التجارية مع جنوب الهند في مراحل أبكر. فقبل وصول المسلمين، كان المجتمع الهندوسي راضياً ومسالماً وآمناً. ولم تأت على ذكر ما حدث للبوذية في الهند. في هذه الأثناء، قضى

المسيحيون الهنود وقتهم في تعذيب المخالفين عبر محاكم التفتيش. ولم تظهر كلمة «طبقة» مرة واحدة في كتب التاريخ المدرسية. وأغفلت ببساطة، في ذلك الجزء من تاريخ الهند الحديث، حادثة اغتيال غاندي عام 1948 على يد ناثورام غودسي، المتطرف القومي الهندوسي. وإجمالاً، تمثل التغييرات مراجعة وإصلاحاً لما نقل إلى الأطفال عن مجتمعهم وتاريخه. أما فحوى الرسالة فهو أن الهند هي الهندوسية والهندوسية هي الهند. في حين مسحت تجربة الطبقات الدنيا من الصورة. ولا يمكن للحصان الوهمي أن يملأ إلا بعضاً من المساحات البيضاء الخاوية.

طلت حكومة حزب بهاراتيا جاناتا أيضاً معظم التعليم العالي في الهند بلون الزعفران (لون الهندوسية المقدس، ولون خلفية شعار الحزب الانتخابي). أدخل جوشي مقررات الرياضيات الفيدية (السنسكريتية) والعلم الفيدي في الجامعات الهندية. النصوص الهندوسية المقدسة (الفيدا) ألفت في الحقبة الممتدة بين عامي 1500 – 1000 ق.م، وتناقلها الناس شفهياً من جيل إلى جيل، إلى أن كتبت في مرحلة ما في الألف الأولى قبل الميلاد. وهي عبارة عن تعويذات ورقى دينية، بعضها شعري حزين ومؤثر، في حين أن بعضها الآخر صعب ومعقد ومبهم فيما يتعلق باللاهوت. لقد قدمت الهند بعضاً من أعظم الفلكيين في العالم بين عامي 100 - 900 بعد الميلاد، وينسب إليها فضل إدخال النظام الثنائي الذي يعد الركيزة المؤسسة للرياضيات الحديثة. لكن اكتشاف الصفر حدث بعد قرون عديدة من حقبة الفيدا، التي لم تنتج قيمة علمية مهمة. «على الرغم من غنى نصوص الفيدا في جوانب عديدة، إلا أنها تفتقد الرياضيات المتطورة والمعقدة، وكل ما يمكن أن ندعوه بالعلم الصارم الدقيق»، مثلما كتب أمارتيا سين[6]. حتى إن حققت نصوص الفيدا اختراقات عظيمة في ميدان المعرفة، فإن قواعد البرهان العلمي عالمية شاملة، ولذلك فلا معنى للحديث عن علم بوصفه «فيدي»، تماماً مثلما يفتقد القول إن الفيزياء النيوتونية «مسيحية» أي معنى منطقي.

استثمرت الحكومة القومية الهندوسية رأسمال كبيراً في مسعاها لإعادة نصوص الفيدا إلى مرحلة أبكر من حقبة ما قبل التاريخ، والعثور على أنماط ونماذج مبكرة للمعرفة

الإنسانية ضمن هذه التعويذات والرقى. لكن المشروع لم يجد حتى الآن دليلاً داعماً في الدراسات والأعمال الأكاديمية. قبل عقود عديدة، قال إيه. إل. باشام إن نصوص الفيدا منحت القوميين الرومانسيين الفرصة المثالية للانغماس في خيالاتهم الموهومة، نظراً لقلة ما يمكن معرفته عن حقبة نصوص الفيدا. «التقاليد التراثية اللاحقة ألبست هذه الأشباح عباءات متألقة من الأساطير. لكن حين تخلع العباءات لا يبقى إلا أشباح مبهمة»، كما كتب [7].

يصف الباحث المختص بالعلوم السياسية بينيدكت أندرسون الدول الأمم بأنها مجتمعات متخيلة. ويقول: «متخيلة، لأن أفراد حتى أصغر الأمم لن يعرفوا معظم إخوانهم المواطنين، ولن يقابلوهم، أو يسمعوا بهم، لكن تعيش في ذهن كل منهم صورة المجتمع والعلاقات الاجتماعية»[8]. ومعظم الناس يعتقدون أن أمتهم كيان طبيعي أيقظه التاريخ، أو الاضطهاد، أو الثورة. لكن ذلك كله يتجاهل الطريقة التي تستخدمها الأمة للسعي إلى ترسيخ هويتها عبر تعريف ذاتها إزاء الدول/ الأمم الأخرى. ومن الأدوات الرئيسة لبناء الأمة تنقيبها الانتقائي في التاريخ عن الأحداث التي يمكن أن توفر قصصاً أو أساطير تحشد أفرادها وتجمعهم. والبلاد كلها، ومنها أقدم الدول/ الأمم، مثل بريطانية وفرنسا، تعمل على تكييف أعيادها الوطنية، وأنظمتها التعليمية، وآثارها التاريخية، ونصبها التذكارية لتناسب هذه الغايات (على حساب بعضها بعضاً غالباً، كما في حالة بريطانية وفرنسا). لكن الهند بلد غير عادي من حيث أنها تحتفظ بفكرتين متنافستين ومتعارضتين للأمة: الفكرة الأولى، التي تبناها غالباً حزب المؤتمر أثناء النضال في سبيل الحرية، تشدد على الهند التعددية والعلمانية والاستيعابية والجامعة (إزاء باكستان الإسلامية)؛ أما الثانية، التي تتبناها الحركة القومية الهندوسية، فتضغط من أجل مزيد من التعريف الهندوسي الاستبعادي للهند (في صدى غير مقصود لباكستان). في السنوات العشرين الماضية فقط تمكنت الفكرة الثانية من تمثيل تهديد جدي وخطير للأولى.

كان عقد التسعينيات من القرن الماضي عصر اضطراب وتشوش وارتباك في السياسة والحكم في الهند. فالانحسار الحاد والسريع في شعبية حزب المؤتمر الذي كان مهيمناً

ذات يوم فسح المجال لظهور نوع جديد من السياسة كانت أكثر سيولة وأقل قابلية للتوقع من بديلها الذي حلت محله. فبين عامي 1947 – 1989، لم يحكم الهند سوى ستة رؤساء حكومات. بعض الفراغ الناجم عن تراجع حزب المؤتمر وانحساره ملأه ظهور مجموعة صغيرة من أحزاب الطبقات الدنيا والأحزاب الإقليمية/ المحلية. ومثلما رأينا في الفصل الأخير، لم تتجاوز معرفة هذه الأحزاب بالهند كثيراً مكانتها فيها. ولم تتحد تعريف الأمة الهندية الذي تبنته حركة التحرر الخاضعة لهيمنة حزب المؤتمر، وإن مثلت تهديداً انتخابياً قوياً لحزب المؤتمر ذاته. أما باقي الفراغ فقد ملأته القومية الهندوسية، التي كانت قوة أكثر تماسكاً وتلاحماً. وتمثل الهدف الرئيس لـ«عائلة منظمة المتطوعين الوطنيين»، الذي يعد حزب بهاراتيا جاناتا ذراعها السياسي، في إعادة بناء هوية الهند الوطنية على طول الخطوط الهندوسية. وجسدت إعادة كتابة تاريخ الهند عاملاً مفتاحياً في المشروع.

أسس المنظمة في ناغبور الطبيب الممارس كي. بي هيدجيوار عام 1925. وفي حين هيمن على حزب المؤتمر المحامون والصحافيون، فقد هيمن على منظمة المتطوعين الوطنيين أشخاص لهم خلفيات علمية. وكان أعضاء المجموعتين كلتيهما (المنظمة وحزب بهاراتيا) من البراهمة حصراً تقريباً في سنواتهم التكوينية. وإلى اليوم تسيطر الطبقات العليا على المنظمة والحزب على حد سواء. كان هيدجيوار أول زعيم للمنظمة. وتميز ثلاثة من خلفائه الأربعة بخلفياتهم العلمية: إم. إس. غولوالكار، أكثر القوميين الهنود نفوذاً وتأثيراً في القرن العشرين، كان مختصاً بعلم الحيوان؛ وبالاصاحب ديوراس (الاستثناء) كان محامياً؛ وراجيندرا سينغ، عالم فيزيائي؛ وكي. إس. سودارشان، الرئيس الحالي، الذي تولى القيادة عام 1999، مهندس. ونظراً لهذا التاريخ، ليس من المفاجئ أن تزخر الفكرة القومية الهندوسية للهند بالصور التخييلية العلمية. فعلى شاكلة القوميين الرومانسيين الفرنسيين والألمان في أواخر القرن التاسع عشر، الذين أثروا بمؤيدي منظمة المتطوعين الوطنيين وأنصارها، رأى هؤلاء الأمة كائناً حياً له جذور عميقة الغور في التراب الوطني. ورفضوا فكرة «العقد الاجتماعي» الموهومة بين الأفراد التي أسست معظم الأفكار الغربية عن الأمة/ الدولة، لأنها تتضمن أن يملك الأفراد الخيار في القضية.

استمدت طريقة تنظيم منظمة المتطوعين الوطنيين إلهامها من الفاشية الأوروبية. فوحدتها التنظيمية الرئيسة هي «شاكا»، أي مجموعة من الأفراد الذين يجتمعون معاً كل صباح لممارسة التمارين، وتلاوة القصص القومية في عشرات آلاف الأحياء السكنية في شتى أرجاء الهند. ففي فجر كل يوم، يجتمع مئات الآلاف، وربما ملايين الرجال الهنود في مجموعاتهم الخاصة لإجراء تمارينهم العسكرية وغرس العقيدة الوطنية في نفوسهم. أما الزي الموحد الذي يرتدونه فيتألف من اللباس الخاكي الذي كان رجال الشرطة البريطانيون يرتدونه في الحقبة الاستعمارية، إضافة إلى التفصيلات المستمدة من زي أصحاب القمصان السوداء في عهد موسوليني، الذين مثلوا رموزاً للقوميين الهندوس إبان تأسيس منظمة المتطوعين الوطنيين عام 1925. المجموعات تماثل الخلايا شبه العسكرية التي شكلت لبنات بناء المنظمات الفاشستية في إيطالية موسوليني والشبيبة الهتلرية في ألمانيا النازية. كتب غولوالكار، الذي يعد كتاباه: «نحن، أو أمتنا المحددة»، و«مجموعة من الأفكار»، إنجيل المتطوعين في المنظمة اليوم، يقول: «الرؤية النهائية لعملنا.. تتمثل في مجتمع منظم بصورة مثالية حيث يصبح كل فرد نموذجاً مثالياً للرجولة الهندوسية، ويتحول إلى عضو حي من أعضاء الشخصية المدمجة للمجتمع». وشبه المجموعة الأساسية بخلية الجسم الحي: «كل خلية تشعر بارتباطها مع الجسم كله ومستعدة دائماً وأبداً للتضحية في سبيل صحة الجسم ونموه».

أما الهدف الرئيس فهو إيجاد هندوسية ذكورية/ رجولية يمكنها أن تواجه (وتنتصر على) ذكورية الثقافتين الإسلامية والغربية. انبثق الهدف من التشخيص الذي يشير إلى أن الهند والهندوسية أصابتهما الصفات الأنثوية على مدى القرون و«تخنثتا». وهشاشة الجسد الهندوسي مكنت القوى الخارجية من الهيمنة على البلد بسهولة. ولذلك، فإن الهدف يتمثل في نسخ الوحدة والتنظيم من الثقافات التوحيدية أو «السامية»، والأفضل صدها. يصف كريستوف جافريلوت، أفضل دارس مختص بالقومية الهندوسية، إستراتيجية منظمة المتطوعين الوطنيين بأنها «محاكاة ثم وصم بالعار»[9]. بكلمات أخرى، نسخ قوى الأعداء ثم أبلستهم. وهذا يفسر السبب الذي جعل غاندي، الذي كان من جوانب عديدة مثالاً ملهماً للهندوسية، مكروها إلى هذا الحد من المتشددين

الهندوس. فقد مثل نموذج اللاعنف، الذي عدوه «تخنثاً»، وبشر بحب أتباع الديانات الأخرى، فاعتبروه خائناً* . والجدير بالذكر أن ناثورام غودسي، الرجل الذي اغتال غاندي، أتى من عائلة مرتبطة بمنظمة المتطوعين الوطنيين.

يتمثل الهدف الرئيس لمنظمة المتطوعين الوطنيين في إيجاد مجتمع هندوسي قائم بذاته. فكل خلية في جسم المجتمع الهندي يجب أن تذعن للكل. وفي مجتمعها المتخيل، يُعرّف الهندي بأنه شخص رأى الهند لا مجرد وطنه الأم بل أرضه المقدسة. وهذا يقصي كما هو واضح الهنود الذين يتوجهون إلى مكة أو روما للحصول على زادهم الروحي. «يجب على الأعراق الأجنبية في هندستان إما أن تتبنى الثقافة الهندوسية واللغة الهندوسية أو تتعلم احترام وتبجيل الديانة الهندوسية، ويجب ألا تحتفي إلا بالمثل العليا التي تمجد العرق الهندوسي والثقافة الهندوسية... أو تبقى في البلاد خاضعة كلية للأمة الهندوسية، ولا تطالب بشيء، ولا تستحق أي مزايا، فضلاً عن المعاملة التفضيلية – ولا حتى حقوق المواطن»، كما كتب غولوالكار[(10)].

وفقاً لهذا الرأي، لا يعد المسلمون والمسيحيون مجرد «أجانب وغرباء» فقط، بل ينتمون إلى «أعراق» مختلفة. وتجد الإشارة هنا إلى ما هو واضح ربما لمعظم القراء: في الهند خلطة استثنائية من الأعراق واللغات والثقافات المختلفة. بل إن الآريين يصفهم العلماء والباحثون بأنهم مجموعة لغوية وليسوا عرقاً. لكن حتى إذا كانوا عرقاً، فقد أتوا هم أيضاً من مكان ما. وقلة قليلة من المسيحيين والمسلمين في الهند هم من ذرية المهاجرين المسيحيين والمسلمين إلى الهند: فالأغلبية الساحقة هم من نسل الطبقات الدنيا الهندوسية الذين تحولوا إلى دين آخر أملاً في النجاة من إسار مكانتهم الاجتماعية المتدنية (دون جدوى في معظم الحالات). لقد وجدت المسيحية في الهند منذ القرن الأول الميلادي، حين اعتنقت أعداد كبيرة من الناس الدين الجديد في ولاية كيرالا الجنوبية. أما الإسلام فهو موجود منذ القرن الثامن، حين انتشر عبر الموانئ الهندية الجنوبية التي جمعتها روابط

* مع أن غاندي يتقاسم بعض السمات مع القوميين الهندوس. تأثر الطرفان بالبريطانيين الذين أغرموا بتصنيف الطبقات والديانات. كتب غاندي يقول عام 1924: « الهندوسي جبان بطبيعته. في حين أن المسلم متنمر».

تجارية مع الجزيرة العربية. ولذلك فإن نسب المسيحية في الهند يرجع إلى عهد أقدم من وصولها إلى معظم أرجاء أوروبة. في حين يبدأ تاريخ الإسلام في الهند قبل مئات السنين من ولادة البروتستانتية. لكن منظمة المتطوعين الوطنيين مازالت تسمح بشق في الباب للأقليات الدينية. فقد قال لال كريشنا أدفاني، نائب رئيس الوزراء أثناء حكم حزب بهاراتيا جاناتا، والعضو المتطوع (بدوام جزئي) في المنظمة، إنه يوافق على وجود «مسلمين هندوس»، و«مسيحيين هندوس»، أي أولئك الذين يقبلون، مثلما يفعل معظم الهندوس، بوجود سبل متعددة للوصول إلى الله. منظمة المتطوعين الوطنيين تنظم أيضاً برنامجاً يدعى «أهلاً بعودتكم إلى الهندوسية» - للمسلمين والمسيحيين الذين يرغبون بالارتداد عن دينهم واعتناق الهندوسية*.

* * * *

لم يكن التفاعل مع أعضاء منظمة المتطوعين الوطنيين كما توقعته. ففي معظم الأحيان اتسموا باللطف والجاذبية. سببت في إحدى المرات حيرة شديدة حين كنت أتناول العشاء في منزل أحد المتعاطفين الكرماء مع المنظمة في أحمد أباد عاصمة ولاية غوجارات. فقد كان الضيف الآخر هو مانوموهان فايديا، رئيس المتطوعين (المتفرغ) في الولاية. ودعيت إلى العشاء لتعرّف الحركة وأهدافها وأساليبها. وصف فايديا مسؤوليات رئيس فرع المنظمة في الولاية: يجب أن يتعهد بالتبتل، وهذا يضمن أن يبقى «متزوجاً» الحركة فقط. وينام في مهاجع في شبكة من بيوت الضيافة والمراكز العائدة للمنظمة في شتى أنحاء البلاد. ولا يمكن أن يشرب الكحول أو يدخن السجائر أو يأكل اللحم. فوجوده كله مرتبط بالقضية. بدت هذه الحياة لي قاسية ومبالغة في نكران الذات. قلت: «بغض النظر عن الامتناع عن أكل اللحوم، يبدو أن كثيراً من القواسم المشتركة تجمعكم مع الأصوليين الإسلاميين». بدا فايديا مصدوماً، لكنه ضحك بعد ذلك: «نحن ملتزمون التزاماً صارماً. أفترض أن بمقدورك القول إن لدينا بعض الأشياء المشتركة، لكنها سطحية جداً. نحن هندوس».

* وفقاً للإحصاءات الهندية، مثل المسيحيون نسبة 2.8% من السكان عام 1951، لكن النسبة تراجعت إلى 2.3% عام 2001. لكن القوميين الهندوس يؤكدون أن الهند طافحة بالتبشير المسيحي.

سألته: «هندوس فحسب، أم هندوس أصوليون؟». قال مؤكداً: «لسنا أصوليين، نحن قوميون. وثمة فارق كبير بينهما».

بعد بضعة شهور، زرت مقر المنظمة لأشاهد معسكر تدريب «الضباط» الذي يقام سنوياً. المبنى الرئيس الواقع في قلب مدينة ناغبور الصناعية وسط الهند، يشرف على ساحة استعراض واسعة ومغبرة، حيث يجري المتطوعون تدريباتهم العسكرية اليومية. المعسكر يمتد ثلاثين يوماً لتدريب قيادات المنظمة الوطنية. رافقني رام مادهاف، الناطق الرسمي (الكثير الكلام والجاذبية) باسم المنظمة. راقبنا ألفين من الرجال من أعمار مختلفة يسيرون بخطوات عسكرية في الساحة، ويحمل كل منهم عصا خيزرانية طويلة (يستخدمها رجال الشرطة أيضاً)، في حين ارتدى الزي الرسمي للمتطوعين في المنظمة: قميص أبيض، وسروال خاكي قصير، وجوربان أصفران، وحذاء أسود، إضافة إلى القبعة السوداء (المناقضة في اللون لقبعة أنصار حزب المؤتمر البيضاء التقليدية). أما تحية أعضاء المنظمة فهي فاشية بوضوح لا تخطئه العين: الوقوف في حالة استعداد، ومد اليد اليمنى على مستوى الصدر وراحتها إلى الأسفل. في فجر كل يوم يتجمع المتدربون أمام الراية الزعفرانية المرفرفة للمنظمة ليؤدوا التحية لها، ثم ينشدوا «عاش الوطن»، النشيد القومي الهندوسي. ويخضعوا طوال ما تبقى من اليوم، حتى العاشرة ليلاً، للتدريب العسكري و«بناء الشخصية»، ويجروا بين التمارين نقاشاً جماعياً ويمارسوا الألعاب التقليدية، مثل لعبة كابادي، التي تشمل فريقين يحاول كل منهما جاهداً مصارعة الآخر في حين يصيح أفراده «كابادي.. كابادي»[11]. لا تلقى الألعاب والرياضيات الفردية التشجيع، حتى تلك التي انطلقت أصلاً من الهند، مثل الشطرنج. ومع أن الكريكيت رياضة جماعية إلا أنها محظورة، بسبب أصلها الأجنبي.

بعد أن شاهدنا التدريبات العسكرية، ذهبنا إلى مقر المنظمة في قلب المدينة القديمة في ناغبور. هنا يعيش كبار القادة، حيث يشترك الرئيس ومعاونه في جناح صغير. وغرفة نوم كل منهما، التي تتصل بغرفة جلوس صغيرة، عارية من الأثاث ومتقشفة. بعض المراقبين يؤكدون أن المنظمة ليست فاشية من الناحية التقنية نظراً لأن الإيديولوجية الفاشية مبنية على عبادة الشخصية (الزعيم الأوحد)، في حين أن المنظمة تشدد على

القيادة الجماعية، ولا يؤدي القائد سوى دور «الموجه والناصح». فاجأني التمييز بوصفه نقطة لا صلة لها بالموضوع. لكن من المؤكد أن بمقدورنا وصف المنظمة بأنها متقشفة. سحرتني بساطة غرفة نوم الرئيس. بدت وكأنها مخدع إقامة رئيس دير كارثوزي* ، أو ربما أحد البابوات المتعففين. قال دليلي المرافق (المتطوع المتفرغ لأداء نشاطات المنظمة): «هذا السرير ربما يموت عليه القائد». ثم زرنا منزل أسرة هيدجيوار، أول قائد للمنظمة. كان منزلاً برهمياً جميلاً أعيد تجديده، ويجسد أسلوب عيش الطبقات الهندية الثرية. انتقلت أسرة هيدجيوار إلى ناغبور في القرن التاسع عشر من حيدر أباد، التي كانت تخضع لسلطة حاكم مسلم لا يعرف التسامح مع المنشقين** . ولابد أن لتاريخ الأسرة علاقة بخوف هيدجيوار الرهابي من الإسلام. قال دليلنا: «أليس البيت جميلاً؟».

تعجبت دوماً من حرص القوميين الهندوس إلى هذا الحد على الفوز برضا وقبول أولئك الذين يستبعد أن يتعاطفوا مع وجهة نظرهم. فمن الصعب عقد مصالحة بين نظرة المنظمة العدوانية للعالم ورقة وتهذيب ودماثة كثير من أعضائها. فهم يعبرون عن الازدراء للأفكار والثقافة الأجنبية، لكنهم يتشوقون لنيل اعتراف الأجانب والفوز بصداقتهم. إنها حالة نفسية معقدة – ربما أكثر تعقيداً من أيديولوجيتهم. رافقني في الزيارة إلى ناغبور سهيل أكبر، وهو مصور مسلم يقيم في نيودلهي. شعر ببعض التوتر من ردة فعل المنظمة إذا اكتشفوا خلفيته الدينية. لكن لم يعرف أحد ديانته، ولو عرفوا لما سمحوا له بالدخول.

كان من المهم بوجه خاص إخفاء اسم سهيل الكامل أثناء الزيارة اللاحقة. فأكثر التنظيمات المتفرعة عن المنظمة تشدداً هو مجلس الهندوسية العالمي. إذ إن منظمة المتطوعين الوطنيين مسؤولة عن الإصلاح الإجمالي للمجتمع، وحزب بهاراتيا جاناتا هو ذراعها السياسي، في حين يمثل مجلس الهندوسية العالمي تنظيمها المعني بالتعامل مع

---

* نسبة إلى أخوية دينية متقشفة من الرهبان والراهبات أسست في فرنسا في القرن الحادي عشر الميلادي. (م)

* خضع ثلث الهند تقريباً إبان الاستعمار البريطاني إلى حكم إمارات منفصلة. ومعظم الإمارات الخمسمئة تقريباً كانت صغيرة جداً، لكن بعضها، مثل حيدر أباد وكشمير، بلغ من الحجم حد الشبه بالدول المستقلة، لكنها لم تكن في الحقيقة كذلك.

إصلاح الديانة الهندوسية. أما جناح الشبيبة في المجلس، باجرانغ دال، فيقدم قوات الصدمة كلما اندلعت أعمال عنف طائفية. الاسم مستمد من هانومان الإله القرد الذي أحرق جزيرة لانكا بذيله في ملحمة رامايانا الهندوسية الكلاسيكية. وتتألف منظمة الشبيبة من شبان تتراوح أعمارهم بين 15 - 30 سنة. ويقال إن عدداً يتراوح بين 300 - 400 ألف شاب قد تلقوا التدريب حتى الآن.

زرنا جلسة تدريبية لشبيبة باجرانغ دال في ناغبور. وخلافاً للتدريبات العسكرية التي تجريها المنظمة، فإن الشبان -وبعضهم لم يصل إلى سن البلوغ بعد- يتلقون التدريب بالسيوف والبنادق الهوائية (الضغط)، إضافة إلى عصي الخيزران. قال المدرب وهو يحرك عصاه ببطء: «هكذا تقتلون رجلاً بضربة واحدة على مؤخرة الرأس. الأمر بسيط جداً». سألت بعض الشبان، ومعظمهم يضعون شوارب مستعارة كثة لإرهاب العدو، عن السبب الذي دفعهم إلى هذا النوع من التدريب. قال أحدهم، وهو مراهق قبلي من منطقة تنشط فيها البعثات التبشيرية المسيحية: «المسيحيون يحاولون إجبار شعبنا على اعتناق ديانتهم. نحن بحاجة إلى الدفاع عن أنفسنا». وقال آخر: «في بلدتنا يقتل المسلمون البقر ويصدرون ضجيجاً ضخماً حين نحاول أن نصلي. فإما أن نَقتل أو نُقتل». بدا الجميع متشوقين لاستعراض مهاراتهم. كان المدرب ودوداً أيضاً. قال: «هذا تدريب للمغاوير من أجل الدفاع عن الهندوسية. ليس لدينا ما نخفيه». كان التدريب يجري علناً أمام الناس على ملعب إحدى الكليات في مركز مدينة ناغبور. قال سهيل بعد أن غادرنا المكان بأسلوب عبر عن ارتياحه: «لو علموا أن مسلماً يلتقط صورهم، فإن الله وحده يعلم ما كانوا سيفعلون». كان خوفه منطقياً. فقد لعبت منظمة الشبيبة الهندوسية دوراً رئيساً في اثنين من ثلاثة من أسوأ أعمال العنف التي شهدتها الهند في ربع القرن الأخير. في عامي 1992 و 2002*.

كانت أعمال العنف التي اندلعت عام 1992 نتيجة مباشرة للمشروع القومي الهندوسي لإعادة كتابة تاريخ الهند. ومثّل الثلاثة آلاف شخص الذين ذبحوا -ومعظمهم من

* الموجة الثالثة الكبرى من أعمال العنف شنها أنصار حزب المؤتمر على السيخ في أعقاب اغتيال إنديرا غاندي على يد أحد حراسها السيخ في أكتوبر 1984.

المسلمين- دليلاً دامغاً، لمن يحتاج إليه، على الحد المهلك الذي يمكن أن يبلغه التاريخ حين تكون هوية أمة متعددة الإثنيات على المحك. انطلقت الشرارة التي أشعلت أعمال العنف حين قامت جماعة كبيرة من الغوغاء الهندوس المتطرفين بهدم مسجد في مدينة أيوديا الهندوسية المقدسة في ولاية أوتر براديش في السادس من ديسمبر عام 1992. وكان القوميون الهندوس، بزعامة إل. كي. أدفاني، الذي أصبح زعيماً لحزب بهاراتيا جاناتا عام 2004 بعد هزيمته في الانتخابات، قد أطلقوا عام 1987 حملة وطنية لهدم المسجد. وزعموا أن مسجد بابر، الذي حمل اسم أول إمبراطور مغولي، مشيد على معبد هدمه بابر عام 1528. وادعوا أيضاً أن الموقع شهد ولادة الإله رام، الذي حملت ملحمة رامايانا اسمه. لا يوجد دليل على وجود رام، الذي يعتقد معظم المثقفين الهنود أنه شخصية أسطورية (اعتقد طاغور أن ملحمة رامايانا تعني «العبرة العجيبة»)[12]. في الوقت ذاته، تشير النصوص المقدسة إلى أن ولادة رام حدثت قبل عدة مئات من آلاف السنين. ولا يوجد أيضاً دليل دامغ يثبت أن المعبد كان مشيداً في هذا الموقع بالذات.

واكتسبت هاتان النظريتان، اللتان تجمعان مكان ولادة راما والمعبد المفقود، زخماً قوياً بعد أن نالت الهند استقلالها. وربما يرى المتشكك في حملة أيوديا مثالاً معبراً عما عناه بينيدكت أندرسون بقوة الخيال. ففي عام 1984، قبل انطلاق حملة معبد رام، لم يكن حزب بهاراتيا جاناتا يملك سوى مقعدين في برلمان الهند المؤلف من 545 مقعداً؛ وبعد سنتين من انطلاق الحملة، ارتفعت قوة الحزب إلى 84 مقعداً. وبلغ الحزب الذروة عام 1999، حين فاز بـ 183 مقعداً، قبل أن يتراجع العدد إلى 138 في انتخابات عام 2004.

أعمال العنف التي اندلعت في غوجارات عام 2002 كانت على علاقة مباشرة بالمذبحة التي حدثت في أعقاب تهديم مسجد بابر قبل عقد من السنين. فقد أطلق شرارتها مصرع ثمانية وخمسين هندوسياً حرقاً في قطار للركاب في مدينة غودرا في السابع والعشرين من فبراير. تعد غودرا، ومعظم سكانها من المسلمين، محطة مهمة في الرحلة بالقطار من غوجارات إلى أوتر براديش. وفي الأسابيع السابقة كان القطار مكتظاً بالمتطرفين الأعضاء في مجلس الهندوسية العالمي المسافرين إلى أيوديا للمشاركة في حملة جديدة

للضغط على الحكومة من أجل بناء معبد رام على أنقاض المسجد المهدم* . أما المسلمون، وكثير منهم يعملون باعة متجولين في محطة قطارات غودرا، فقد زعموا أن المتطرفين الهندوس المسافرين بالقطار ظلوا يستفزونهم طوال أسابيع. وفشلت التحقيقات التي أجرتها الحكومة في التوصل إلى نتيجة حاسمة فيما يتعلق باشتعال النار في عربة القطار التي احترق فيها الركاب وكيف بدأت. لكن الشهود جميعاً اتفقوا على وجود أعداد كبيرة من الغوغاء المسلمين الغاضبين عندما اشتعلت النيران.

أعلنت حكومة ولاية غوجارات (التي تنتمي إلى حزب بهاراتيا جاناتا) برئاسة ناريندرا مودي، الناشط المتطوع (والمتفرغ) في منظمة المتطوعين الوطنين، الذي أصبح رئيساً لوزراء الولاية قبل بضعة أسابيع، الحداد في يوم 28 فبراير، بحيث يمكن إقامة مجالس العزاء للمسافرين القتلى في شوارع أحمد باد، أكبر مدن غوجارات. كان الإعلان في الحقيقة دعوة للعنف. فقد تحولت أحياء المسلمين في أحمد أباد وغيرها من مدن الولاية إلى مصائد قاتلة مع هجوم آلاف الهندوس المتعصبين والمسلحين عليها. وحين افتضحت أعمال العنف، استشهد مودي بقانون نيوتن الثالث: «لكل فعل ردة فعل مساوية ومعاكسة له». وأعطت كلماته الضوء الأخضر للقتلة. لكن ردة الفعل تجاوزت الفعل بمراحل عديدة. ففي موجة العنف الدموي روى شهود العيان مئات الحوادث، وبعض عمليات القتل سجلتها كاميرات التلفزيون. أما أشد ملامح أعمال العنف إثارة للقلق فكان المعاملة الوحشية للنساء والأطفال المسلمين. فقد قام الغوغاء باغتصاب النساء، ثم صبوا زيت الكاز في أفواههن وأفواه أطفالهن ثم ألقوا علب الكبريت المشتعلة عليهم. ووقف المئات وهم يطلقون صيحات البهجة والسرور أمام عمليات الحرق المروعة هذه، التي رمزت للانتقام والثأر رداً على حرق ركاب القطار في غودرا. وأجبر الرجال على مشاهدة زوجاتهم وأطفالهم يحرقون حتى الموت قبل أن يقتلوا بدورهم. وبدت المذبحة مدبرة ومخططة جيداً: فقد استولى القتلة على السجلات الانتخابية وتمكنوا من معرفة بيوت المسلمين الذين يعيشون في الأحياء المختلطة، وتركوا بيوت غيرهم المجاورة سليمة.

* لم تحقق الحملة هدفها إلى الآن. ويمكن -هذه المرة فقط- الصفح عن النظام القضائي الهندي على المدة الطويلة التي احتاج إليها للاستماع إلى ما يبدو أنها قضية لا حل لها قبل تقرير أي ديانة تملك الحق القانوني في الموقع.

وتمكنوا أيضاً من تحديد المتاجر التي يملكها المسلمون حتى بعد أن اتخذ أصحابها احتياطهم باتخاذ شركاء من الهندوس أو وضع أسماء هندوسية عليها. دمرت مئات من متاجر المسلمين. واتسمت عمليات القتل بالنمطية والفاعلية بحيث بدت مخططة ومعروفة النتائج بصورة مسبقة * .

الملمح الثاني الأشد إثارة للقلق في أعمال العنف كان دور شرطة ولاية غوجارات، التي وقف رجالها يتفرجون على المذبحة دون أن يحركوا ساكناً. بل قيل إنهم في بعض الحالات ساعدوا القتلة عبر توجيههم إلى عناوين المسلمين. وفي حالات أخرى أعادوا المسلمين الهاربين بالقوة إلى الغوغاء الهندوس. وقدمت تحقيقات عديدة تناولت أعمال العنف أدلة دامغة على أن الأوامر صدرت إلى شرطة غوجارات بعدم التدخل(13). قالت جانات شيخ، ربة المنزل المسلمة في شهادتها أمام لجنة تحقيق قضائية مستقلة: «قبض الغوغاء على زوجي وضربوه مرتين بالسيف على رأسه».

ثم ألقوا البنزين في عينيه وأحرقوه. أما زوجة أخي فقد نزعوا عنها ثيابها واغتصبوها. كان في حضنها رضيع عمره ثلاثة أشهر. ألقوا النفط عليها وعلى الطفل وأحرقوهما. في حين لم تتمكن حماتي من الصعود على السلم وبقيت في الطابق الأرضي مع حفيدها البالغ من العمر أربع سنوات. توسلت إليهم أن يأخذوا ما لديها من مال ومجوهرات ويتركوا الأطفال. فأخذوا المال والمجوهرات وأحرقوا الأطفال. وتعرضت الفتيات في البيوت المجاورة للاغتصاب ثم الحرق. كان رجال الشرطة في المكان لكنهم ساعدوا الغوغاء(14).

كانت هذه رواية شاهدة عيان من مئات غيرها سجلتها جماعات حقوق الإنسان. في الحالات كلها تقريباً رفضت الشرطة تسجيل إفادات الشهود.

وافق هارين باندیا، أحد وزراء حزب بهاراتيا جاناتا، ومنافس ناريندرا مودي، على الإدلاء بشهادته أمام لجنة تحقيق عام 2003 فيما يتعلق بالتعليمات التي صدرت إلى الشرطة. لكنه اغتيل على يد إرهابي مسلم كما زعم قبل ذلك بوقت قصير. لم تعقد

* لتاريخ طريقته العجيبة في إنتاج المصادفات الغريبة: ففي 27 فبراير - اليوم الذي قتل فيه ركاب قطار غودرا حرقاً- احترق مبنى الرايخستاغ الألماني عام 1933، مما أعطى الفرصة لهتلر للاستيلاء على السلطة.

محاكمة للنظر في عملية الاغتيال. وإلى الآن، عند كتابة هذه الصفحات (2006) لم توجه تهم القتل العمد أثناء أعمال العنف في ولاية غوجارات إلا إلى حفنة قليلة من الأشخاص، في حين ما يزال مئتي مسلم رهن الاعتقال دون محاكمة وفقاً لقوانين مكافحة الإرهاب في الهند بتهمة قتل ركاب قطار غودرا. ولم يعتقل هندوسي واحد وفقاً لهذه القوانين. ولم تؤد هزيمة الحكومة بقيادة حزب بهاراتيا جاناتا في انتخابات عام 2004 إلى إحداث تغيير يذكر في الوضع. فوفقاً للدستور الاتحادي الهندي، يعد القانون والنظام من مسؤولية الولاية بصورة رئيسة. أعيد انتخاب حكومة ناريندرا مودي في الولاية بعد أن حققت فوزاً كاسحاً نالت فيه ثلثي المقاعد في ديسمبر عام 2002، بعد تسعة أشهر من اندلاع أعمال العنف الطائفية. أما عنوان حملة مودي فكان «فخر ولاية غوجارات». في مسار الحملة، شبه مودي المسلمين بـ «الطابور الخامس»، العدو الداخلي، الذي يدين بالولاء لباكستان.

ثمة ملمح مزعج آخر لأعمال العنف الطائفي في غوجارات تجسد في استجابة الحكومة الوطنية في نيودلهي. إذ لم يقم أتال بيهاري فاجبايي، رئيس الوزراء آنذاك، حتى بزيارة الموقع الذي شهد أعمال العنف قبل مرور شهر كامل على اندلاعها. ووفقاً لمساعديه، حاول فاجبايي، الذي يعد عموماً وجهاً معتدلاً في حزب بهاراتيا جاناتا، طرد مودي من منصبه بعد أعمال العنف، لكن زملاءه رفضوا محاولته. وبعد أن فشل في اتخاذ الخطوة الصائبة، اختار رئيس الوزراء السباحة مع التيار: «دعونا لا ننسى كيف بدأ الأمر برمته. من أشعل النار؟ كيف انتشرت؟ في كل مكان يعيش فيه المسلمون، يميلون إلى عدم العيش بسلام مع الآخرين. يريدون نشر دينهم بواسطة الإرهاب والتهديد»، حسبما قال أمام مؤتمر للحزب في ولاية غوا الساحلية الجميلة بعد بضعة أسابيع[15]. واحتفى آخرون باستعادة «كرامة الهندوس وكبريائهم» بعد أعمال العنف. ألمحت منظمة المتطوعين الوطنيين إلى أن حادث مشابه في المستقبل سيؤدي إلى مثل هذه العواقب الدموية. وأصدر إم. جي. فايديا، الناطق الرسمي باسم المنظمة آنذاك تصريحاً بسيطاً: «ليفهم المسلمون أن أمنهم الحقيقي يكمن في كسب ود الأغلبية». في العادة، تترافق مثل هذه البيانات والتصريحات بفقرة إضافية تشير إلى أن الهندوس شعب متسامح خلافاً للمسلمين. لكن معظم الهنود الذين عرفتهم، من الهندوس أو المسلمين، وفي حالات كثيرة كانوا أصدقاء لي يرفضون التصنيفات الدينية، تميزوا بالتسامح إلى حد مدهش. فهو جزء

من ميراثهم الوطني. وسيتطلب الأمر شطحة واسعة من الخيال لضم منظمة المتطوعين الوطنيين إلى مثل هذا الميراث.

الجانب الأخير المزعج في أعمال العنف التي اندلعت في غوجارات تمثل فيما حدث بعدها. فقد تشرد أكثر من مئتي ألف شخص وانتهى بهم المطاف في مخيمات اللاجئين. ولم تقدم الحكومة سوى تعويضات قليلة (أو لم تقدم أي تعويضات على الإطلاق) للناس الذي فقدوا أقاربهم أو خسروا متاجرهم أو دمرت منازلهم، في حين لم توفر سلطات الولاية سوى قدر زهيد من المعونة للاجئين في المخيمات. ومعظم المدارس والملاجئ المؤقتة وفرتها للاجئين لجنة الإغاثة الإسلامية، وهي جمعية خيرية تتبنى نسخة متشددة من الإسلام السني*. والجدير بالذكر أن المسلمين من ضحايا المذبحة هم إما من البهرة أو الاسماعيليين (الذين يدينون بالمذهب الشيعي)، ولم تجمع أياً من الطائفتين روابط قوية مع باكستان التي يهيمن عليها السنة، في حين يمثل الشيعة هناك أقلية ويعاملون بوصفهم مواطنين من الدرجة الثانية. ومع ذلك تخلت عنهم شرطة غوجارات، ونظامها العدلي، ومسؤولي الرعاية الاجتماعية. لذلك وجد كثير من الرجال والشبان المسلمين الغاضبين -سنة وشيعة- مبدأ يهتدون بهديه حيث أعانهم عندما كانوا بأمس الحاجة إلى العون. «من السخرية المريرة أن الشبان المسلمين الذين لم يكونوا متطرفين قبل أعمال العنف تحولوا إلى التطرف بعدها»، كما قال حنيف لاكداوالا، الناشط المسلم المقيم في أحمد أباد ورئيس جمعية خيرية لمساعدة النساء اللاتي يعشن في أحياء الفقر. «لو قدمت الولاية شيئاً للمسلمين -لو أظهرت أي اهتمام بحياتهم وسعادتهم أو طبقت عليهم مبادئ العدالة- لوجدوا ملاذاً آخر يلجؤون إليه». إن المجتمعات المتخيلة تميل إلى إنتاج مجتمعات متخيلة أخرى. ثم تستمد كل واحدة القوة من الأخرى.

ما يمكن أن يقال عن التاريخ الوطني المتخيل يمكن تطبيقه على التقاليد التراثية الدينية. ومثلما تخيل المسيحيون في أوروبة القروسطية عيسى المسيح على هيئة رجل أشقر

* من المهم القول إن آلاف الشباب الهنود، ومعظمهم من الهندوس، ذهبوا أيضاً إلى غوجارات متطوعين لمساعدة ضحايا المذبحة بعد انتهاء أعمال العنف. وكثير من الصحافيين الذين خاطروا بأرواحهم لتسجيل ما حدث في أعمال العنف كانوا من الهندوس على الأغلب.

الشعر، واعتنقوا فكرة «قتل الإله» حين تناسبت مصالحهم التجارية مع اضطهاد اليهود، ومثلما يبحث المسلمون الليبراليون اليوم في الأحاديث النبوية عن أدلة تثبت حق المرأة في الحصول على الفرص المتساوية مع الرجل، كذلك يعيد دعاة مراجعة التاريخ الهندوس ابتكار الماضي وترتيب أحداثه لأغراض معاصرة. من هذه الأدوات البقرة المقدسة. فمجرد ذكر هذا الموضوع يكفي لإثارة غضب هائل لدى القوميين الهندوس، لذلك سوف أكون حريصاً. شاركت ذات مرة في ندوة على التلفزيون في الهند، وجلس إلى جانبي وزير المعلومات والبث (من حزب بهاراتيا جاناتا). كانت الانتخابات على الأبواب في مختلف الولايات، مثلما هي الحال دوماً تقريباً في الهند، وأثار الوزير -كما جرت العادة دائماً- قضية حظر ذبح البقر. قلت إن معظم الهنود الذين تحدثت معهم عبروا عن قلقهم من ارتفاع الأسعار، وقلة الوظائف، وضعف شبكات المياه. أما قضايا ذبح البقر وحظر تغيير الدين بالقوة فهي مسائل يثيرها المختصون الإستراتيجيون في الانتخابات لتشتيت انتباه الناس عن المشكلات الحقيقية. اتقد وجه الوزير غضباً ورفع إصبعه أمامي: «لا تحاول إهانة البقرة. إنها حيوان مقدس. هل تحاول إهانتها؟». نفيت ذلك بالطبع، وبحثت عن إجابة شافية. لكن الوزير نجح في تحويل الانتباه عن الموضوع الرئيس.

الوضع الذي وُجد فيه دي. إن. جها، أستاذ التاريخ في جامعة دلهي كان أشد سوءاً. ففي عام 2001، أصدر الدكتور جها، وهو رجل نحيل في أوائل السبعينيات من العمر، كتاب «أسطورة البقرة المقدسة». قدم فيه الدليل على أن شرائح واسعة من المجتمع الهندوسي -ومنها البراهمة- كانت تأكل لحم البقر في الماضي البعيد. كثير من اليساريين في الهند سعوا إلى تصوير المشكلات بين الهندوس والمسلمين بوصفها نتيجة لسياسة البريطانيين، الذين اتبعوا إستراتيجية فرق تسد وتقسيم الهنود إلى فئات وطبقات مصطنعة للحفاظ على حكمهم للهند. بل إن بعضهم زعم أن الطبقات (الاجتماعية) قد ابتدعت أثناء الحقبة الكولونيالية*. من الواضح إذاً أن هناك دراسات معرفية وأفكاراً من اليمين

* إن استغلال الانقسامات الدينية والطبقية القائمة شيء، وهذا ما فعله البريطانيون دون شك، وابتداعها من العدم شيء آخر مختلف تماماً. من الآثار غير المقصودة لمثل هذه الفكرة حرمان الهنود في الماضي -والحاضر- من أي دور في صنع تاريخهم. كما أنها ترفع مكانة البريطانيين إلى درجة العبقرية، وهو وصف لا يوافق عليه سوى قلة قليلة ممن درسوا الحقبة الكولونيالية في الهند.

obeikandl.com

واليسار تخضع للمساءلة. وليست لدي النية للحكم على أصالة حجج الدكتور جها وصدقها، لكن حرية التعبير حق مشروع في الهند حرم منه الدكتور جها. فقد حظر كتابه على الفور من قبل حكومة حزب بهاراتيا جاناتا (حصلت على نسختي من الكتاب من لندن). وأجبر الدكتور على البقاء في مسكنه داخل جامعة دلهي لأن شبيبة منظمة باجرانغ دال والناشطين من الطلاب اليمينيين هددوا بقتله. قال الدكتور: «لم يقف أحد معي، ولا حتى الناشر. فحين تستعمل كلمة (بقرة) يفقد الناس المنطق كله».

برزت حركات حماية البقر في أواخر القرن التاسع عشر في شمال الهند، حيث تتركز أعداد كبيرة من السكان المسلمين. اختارت طائفة أريا ساماج الهندوسية الإصلاحية المتشددة، التي يمكن مقارنتها بسبب تقشفها ونزعتها الحربية بالكالفينية، البقرة المقدسة المعرضة للخطر كما زعمت أداةً عاطفية لإثارة المشاعر الهندوسية لدى الجماهير. وتمثل هدف الطائفة في ضم هندوس الطبقات الدنيا إلى الصف، عبر طريقة تنذر بدقة بالإستراتيجيات التي تتبناها القومية الهندوسية هذه الأيام.

قررت زيارة مركز أبحاث إنتاج البقر قرب ناغبور. يسعى المركز، الذي يديره مجلس الهندوسية العالمي، إلى الاعتماد على خمسة منتجات قروية تقليدية للأبقار: الحليب، والسمنة، والزبدة، والبول (لأغراض دينية) والروث (للوقود). رافقني سونيل مانسينغكا، أحد كبار الناشطين في المجلس. ويدير المركز، الذي يعتمد على المهارات البحثية لشبان يحملون شهادة الدكتوراه في الطب والإحياء، نزلاً ومدرسة للسكان القبليين المحليين يحملان اسم سوامي فيفيكاناندا، الفيلسوف الهندوسي والمصلح الاجتماعي الذي يحظى باحترام كبير. قال مانسينغكا ونحن نقترب من حظيرة واسعة للبقر: «اخلع نعليك من فضلك». سألت وأنا أنظر إلى برك من بول وروث البقر التي تغطي المكان: «ماذا؟ حافي القدمين». أجاب: «أجل. روث البقر معقم ومطهر. وإذا كنت تعاني داء قدم الرياضي، فسوف تشفى».

علقت لوحة خارج الحظيرة تقول: «لا تحاول إغاظة البقرة، قدم لها الحب. البصق ممنوع في الداخل. أعط أي هبات أو عطايا إلى العامل لا إلى البقرة». دخلت الحظيرة

بحذر، محاولاً عدم الانزلاق على الأرضية. قال مرافقي: «هذه الأبقار من سلالة نقية من هندستان. قضينا وقتاً طويلاً في فصل السلالات الأجنبية عن المحلية، التي تعد متفوقة من الجوانب كلها». ثم دفعني لأقف وجهاً لوجه أمام ثور ضار بلغ حجم خصيتيه المتدليتين حجم كرتين من كرات الكريكيت. جفلت، فقال: «لا تقلق. إنه من سلالة هندية نقية. لا يمكن أن يؤذيك. فهو يختلف عن الثيران في الغرب». وقفت أمام الثور وجهاً لوجه لوهلة. ثم استطعت بطريقة ما الوصول إلى وسط القطيع عبر طبقة من منتجات الأبقار سمكها بوصتان. أعطوني صينية فضية عليها شموع وزعفران وأرز وأزهار وعجينة حمراء اللون. كان علي أن أدوّر الصينية بضع مرات فوق رأس إحدى البقرات قبل أن ألطخ بالعجينة رأسها ورأسي أيضاً. قال مانسينغكا: «أنت الآن تصلي للبقرة. إنها أمي. أمك». وبدت الأم غير مهتمة ولا منزعجة من هذا الاهتمام كله.

ثم أخذني المرافق إلى المختبرات. صدمتني رائحة الغرفة الأولى قبل عشرين متراً من دخولها. فقد ضمت مئات القوارير التي تحتوي على بول البقر، مجمعة فوق بعضها. هنالك عدد من مواقد بنزن، وبعض البول كان يغلي في الدوارق. قال أحد الباحثين في المخبر، وهو يلوح بكبسولة أمام وجهي: «هذا مضاد للتأكسد سوف يعالج السرطان». وهنالك أيضاً منتجات مشتقة من البول تعالج التهاب القصبات والبدانة، وأخرى منشطة تزود بالطاقة، وغيرها لتنقية الدم. ثم شاهدنا المنتجات المشتقة من روث البقر. إذ إن روث البقر أيضاً يخفي سلسلة مؤثرة من العلاجات المتفوقة على مثيلاتها. أما منتجي المفضل فكان الصابون المصنوع من روث البقر. هنالك أيضاً شامبو مصنوع من روث البقر لمعالجة القشرة. وقال مانسينغكا إن المركز قدم عدداً من التطبيقات المشتقة من روث البقر إلى مكتب الترخيص الأمريكي وإلى هيئات مشابهة في بلدان أخرى. وأضاف: «الآلهة تعيش في روث البقر. هذه الوصفات كلها مذكورة في النصوص المقدسة».

أبلغني مانسينغكا، وهو راجستاني في أواخر الثلاثينيات من العمر، بأنه لا يوجد علاج خارج نصوص الفيدا المقدسة يستحق الاستعمال. عرفت أنه مخلص ويصدق ما يقوله تماماً. فمعتقداته، في مجملها، ترتقي إلى مستوى الأصولية النصية -حالة حديثة يأخذ فيها الخلف معتقدات السلف، التي قبلت في الماضي بوصفها رمزية،

ويعتنقها بوصفها صحيحة وصادقة حرفياً، بل يمكن إثباتها علمياً: الله خلق العالم في ستة أيام؛ وحواء خلقت من ضلع آدم؛ ورام ولد في هذا المكان بالضبط. إلخ. لكن مركز أبحاث البقر كانت له بالفعل استخدامات مهمة ومؤثرة لمنتجات البقر. شاهدت بصحبة مانسينغكا عدة شجرات، سمدت بكتل حيوية بقرية مدعمة ومعالجة بطريقة خاصة. كانت كل ورقة تصدر رائحة مركزة من ثمرة الشجرة - بغض النظر هل هي شجرة مانجا أم ليمون أم برتقال. بدا ذلك مبهجاً ومفرحاً. ورغم كل شيء، قد يشفي بول البقر من السرطان فعلاً!

عند نهاية الجولة، قال مانسينغكا، الذي ظل يبحث طوال الوقت عن علامة تدل على اقتناعي بمزايا منتجات البقرة المقدسة: «عندما تكتب، أرجو أن تكون لطيفاً مع البقرة. فهي أمنا». وعدته بعدم إهانة البقر. وحين عدنا إلى ناغبور، ونزل مانسينغكا من السيارة عند مكاتب مجلس الهندوسية العالمي، كانت هناك بقرة في الشارع قرب المدخل وقد وضعت رأسها في كومة كبيرة من القمامة لتأكل منها. المشهد يتكرر يومياً، حتى في ناغبور، عاصمة حركة حماية البقرة. ولا يبدو أن أحداً يهتم أو يكترث، أو يعترض.

في الخامس عشر من أكتوبر عام 2002، شنق خمسة رجال من الداليت على أيدي مجموعة كبيرة من الغوغاء الهندوس من الطبقة العليا في بلدة جاجار الهندوسية قرب نيودلهي. فقد قبض على الرجال الخمسة وهم يحملون جثة بقرة ميتة اشتروها من قرية مجاورة. ومع أن ذلك يعد جزءاً من مهنتهم الموروثة، بوصفهم من طبقة كامار الفرعية، إلا أن أحد الغوغاء زعم أنهم قتلوا البقرة قبل العمل على جلدها. ولذلك شنقوا وتركت جثثهم معلقة تتأرجح أمام أنظار حشد كبير من الناس. بعد الجريمة، أصر السكان المحليون المصدومون من الداليت على أن البقرة كانت ميتة. روعت وحشية الحادث النادر، الشبيه بما كان يجري في القرون الوسطى، الأغلبية الساحقة من الهنود. لكن جيريراج كيشور، رئيس مجلس الهندوسية العالمي، اكتفى بالقول: «وفقاً لنصوصنا المقدسة، تعد حياة البقرة بالغة الأهمية» [16]. وهذا يعني ضمناً أنها أهم من حياة الرجال الهندوس الخمسة من الطبقة الدنيا.

العلاقات الحارة/ الباردة بين القومية الهندوسية والطبقات الدنيا تمثل مفتاح فهم حظوظ حزب بهاراتيا جاناتا ومصائره. وهي تفسر السبب الذي يجعل من المستبعد أن يفوز الحزب بالأغلبية الساحقة في البرلمان الوطني قبل أن يجد طريقة فعالة للفوز بتأييد مستدام من ناخبي الطبقات الدنيا. فقد ظلت الأغلبية الساحقة من أعضاء منظمة المتطوعين الوطنيين وحزب بهاراتيا جاناتا من الطبقة العليا دوماً. في تسعينيات القرن العشرين، جرت بعض المحاولات لضم شخصيات سياسية بارزة من الطبقات الدنيا - وحتى من المسلمين- إلى حزب بهاراتيا جاناتا من أجل توسيع قاعدته الانتخابية. لكن المحاولات لم تحقق سوى نجاح محدود. ومثلما رأينا في الفصل الأخير، كلما ضاقت قاعدة الحزب الاجتماعية في الهند، زادت فاعليته في استهداف «مصرفه الانتخابي». لقد فقد الحزب مصداقيته حين بدأ فجأة بتقديم الوعود للكل.

برز حزب بهاراتيا جاناتا على المستوى الوطني عبر ردة فعل عنيفة للطبقة العليا على النزعة المتنامية في ثمانينيات القرن العشرين (واستمرت منذ ذلك الحين) لتخصيص الوظائف الحكومية لفئات مختلفة من الطبقات الدنيا. في أحمد أباد، عاصمة «سياسة الزعفران»، اندلعت أعمال عنف قادها رجال الطبقات العليا في عامي 1981 و 1985 احتجاجاً على توسيع حكومة الولاية (من حزب المؤتمر) حصص وظائف القطاع العام لتشمل الطبقات المتخلفة. وأدت السياسة المثيرة للجدل إلى انحسار هيمنة حزب المؤتمر التقليدية على سياسة ولاية غوجارات، حيث اعتمد منذ الاستقلال على دعم الطبقات العليا في الولاية للفوز بالانتخابات مرة بعد أخرى. فتحولت أصوات ناخبيها إلى حزب بهاراتيا جاناتا إلى الأبد. وما حدث في غوجارات تكرر على المستوى الوطني عام 1990، عندما اتبع في. بي. سينغ رئيس حكومة ائتلاف الأقلية التي لم تعمر طويلاً، ما جاء في تقرير لجنة ماندال، الذي أوصى بتخصيص نسبة 27% من الوظائف الحكومية الوطنية كلها للطبقات المتخلفة. وأشعل قرار سينغ شرارة أعمال العنف في شوارع نيودلهي، وقام عدد من الطلاب المنتمين إلى الطبقات العليا بالتضحية بأنفسهم أمام عدسات كاميرات التلفزيون.

الأهم أن أعمال العنف أدت إلى انهيار ائتلاف حكومة سينغ الهش. فقد تألفت حكومته من الأحزاب المعادية لحزب المؤتمر أي الأحزاب الهندية كلها باستثنائه، ومنها حزب بهاراتيا جاناتا وحزبي لالو ياداف وملايام ياداف. لم يوحد هذه الأحزاب سوى مشاعر الكراهية لحزب المؤتمر. وبعد أن تبنى السيد سينغ توصيات لجنة ماندال، سحب حزب بهاراتيا جاناتا تأييده؛ وهذا ما عجل بتفكك الائتلاف. ثم أطلق إل. كي. أدفاني، رئيس الحزب آنذاك، موكب العربة الحربية إلى أيوديا. وبلغت الأحداث ذروتها في تهديم مسجد بابر بعد سنتين. كان الهدف الظاهري هو الإسلام. لكن الوقود الذي أبقى عربة أدفاني مندفعة على الطريق كان غضب الطبقة العليا على سياسة الطبقة الدنيا. وتمثلت إستراتيجيته لمغالبة المشكلة في توحيد طرفي الصدع كليهما تحت راية الهندوسية بهدف بناء معبد رام في أيوديا. ونجح في مسعاه إلى حد ما. لكن ظل القطبان التوأمان للسياسة الهندية منذ عام 1990 ممثلين في سياسة الطبقة الدنيا مقابل القومية الهندوسية. في حين احتل حزب المؤتمر موقعاً متوسطاً ومزعزعاً بين الجانبين.

كنت في زيارة عابرة إلى مومباي في عام 1998، بعد وقت قصير من وصول حزب بهاراتيا جاناتا إلى السلطة في الهند. ومع أن الحزب كان مجرد واحد من بين أربعة وعشرين حزباً في الائتلاف، إلا أنه هيمن على الحكومة. وأحكم قبضته أكثر بعد أن فاز بانتخابات جديدة عام 1999. إلا أن الائتلاف الحكومي بزعامة حزب بهاراتيا جاناتا خسر السلطة في انتخابات عام 2004، لكن للمرة الأولى -والأخيرة إلى الآن- في تاريخ الهند الحديث يحكم حزب غير حزب المؤتمر مدة ولاية كاملة. وكان أتال بيهاري فاجبايي، الزعيم السبعيني، أول رئيس وزراء في الهند لا يكون عضواً حالياً أو سابقاً في حزب المؤتمر.

كثير ممن قابلتهم في مومباي عام 1998 شعروا بالقلق والتوتر تجاه ما قد يفعله حزب بهاراتيا جاناتا الآن بعد أن حاز على السلطة في نهاية المطاف (باستثناء مدة الثلاثة عشر يوماً في عام 1996، حين لم يتح الوقت لفاجبايي حتى للجلوس على مقعد رئيس الوزراء). كان الحزب على مستوى التوقعات. فبعد بضعة أسابيع من استلام السلطة، أجرى خمس

تجارب نووية تحت صحراء راجستان. وكثير من الهنود الذي عارضوا الأسلحة النووية ونظروا باعتزاز وتقدير للموقف الأخلاقي الذي صاغه نهرو في السياسة الخارجية بعد الاستقلال، وجدوا أنفسهم فجأة يلوحون بالراية الهندية الثلاثية الألوان. كنت في حفل أتحدث مع روائي وصف نفسه بأنه ليبرالي: «لا أؤيد حزب بهاراتيا جاناتا، لكن هذه لحظة خاصة جداً في التاريخ الهندي. فلأول مرة في أكثر من ألف عام لدينا حكومة هندوسية، وامتلكت الشجاعة لإغضاب أمريكا بالتجارب النووية»، كما قال.

هدأ فاجبايي حدة أسوأ مخاوف شركائه عبر تجميد المسعى إلى تحقيق ثلاثة من أهم أهداف الحزب: وضع قانون مدني مشترك، كان سيعني إلغاء قوانين الأحوال الشخصية المستقلة التي منحها نهرو إلى المسلمين؛ وبناء معبد رام في أيوديا؛ وإلغاء المادة التي تمنح في الدستور الهندي درجة أكبر من الاستقلال إلى ولاية جامو وكشمير – الولاية المقسمة على سفوح جبال الهملايا، التي تزعم باكستان أنها تابعة لها* .

لكن في عام 1998، ظل بعض أفراد الطبقة الوسطى الهندية وكثير من المستثمرين الأجانب في حالة من القلق والخوف. وعلى شاكلة الأحزاب السياسية الأخرى في الهند، تجمع حزب بهاراتيا جاناتا رابطة عاطفية قوية بالاعتماد الذاتي الاقتصادي، صيحة حشد الجماهير التي أطلقتها حركة الاستقلال عن بريطانية. وكان مانموهان سينغ قد تخلى منذ عام 1991 عن العناصر الرئيسة في إطار نهرو الاقتصادي. لكن حزب بهاراتيا جاناتا وغيره من الأحزاب ظلت تتبنى القضية القديمة، وبقي شعار الاكتفاء الذاتي عاملاً قوياً في فلسفة منظمة المتطوعين الوطنيين، التي كثيراً ما تصف المنتجات الأجنبية بأنها «ملوثة».

في عام 1995، أغلقت حكومة المدينة التابعة للحزب الفرع الوحيد لمطاعم كنتكي فرايد تشيكن في نيودلهي بعد أن وجد مفتشو الصحو ذبابة في مطبخ المطعم. العارفون بمعايير النظافة والصحة في مطاعم نيودلهي شككوا قليلاً بذريعة الحزب. وعلى أي

* تتألف ولاية جامو وكشمير من جزأين رئيسين: جامو التي تسكنها أغلبية هندوسية، ووادي كشمير، الذي تسكنه أغلبية مسلمة. وهناك جزء ثالث، لاداك، تسكنه أغلبية بوذية. وسوف أشير منذ الآن فصاعداً إلى الولاية باسم كشمير.

حال لم يكن الإغلاق ضرورياً نظراً لأن الزبائن الهنود أجمعوا كلهم تقريباً على أن طعم الدجاج المقلي يناقض الدعاية عن مذاقه اللذيذ. لكن الإغلاق بعث برسالة سياسية. وعلى نحو مشابه، وعد حزب بهاراتيا جاناتا في بيانه الانتخابي عام 1998 بأنه سيقبل الاستثمار الأجنبي، لكن فقط في المجالات التي تظهر فيها الحاجة إلى التقانة الجديدة: «الرقاقات المصغرة لا رقائق البطاطا» كما يقول الشعار. ومن ثم، كان قلقاً مشروعاً من قيام الحزب بإجهاض إصلاحات مانموهان سينغ وعكسها. لكن حكومة فاجبايي سرعان ما اعتنقت بكل حماس مبدأ تحرير الاقتصاد، مع أن حظوظها أفضل في اجتذاب الاستثمار في رقائق البطاطا من الرقاقات (الإلكترونية) المصغرة.

تمثلت أعظم آمال أنصار الحزب من الناخبين -وربما لا يمكن وصف سوى قلة قليلة منهم بأنهم من القوميين الهندوس الحقيقيين- في الوفاء بوعد الحزب بأن يكون «مختلفاً». بعث هذا الشعار الانتخابي المؤثر جداً بالرسالة الواضحة التي تشير إلى أن الحزب لن يذعن للفساد المستشري في هذا العدد الكبير من مجالات الحياة العامة الهندية. وجسد طريقة فعالة لتمييز حزب بهاراتيا جاناتا عن حزب المؤتمر، الذي أوجد نظام الفساد، وعن أحزاب الطبقات الدنيا، التي استكملته. وربما لا يوافق الهنود على الكراهية الطائفية في حزب بهاراتيا جاناتا، لكنهم يستطيعون على الأقل التطلع إلى حقبة من الحكم النظيف.

تبين أن هذا الأمل مبالغ في التفاؤل. فقد أشبع الحزب جزءاً من شهوة سفك الدماء لدى أنصاره الأساسيين، كما رأينا في غوجارات، وهدأت حدة غضب منظمة المتطوعين الوطنيين، التي كانت تعبر عن سخطها على الأجندة الاقتصادية الليبرالية للحكومة، نتيجة قرار الحزب بتلوين معظم المناهج التعليمية بلون «الزعفران». لكن في آليات عمل الحكومة اليومية، ثبت أن حزب بهاراتيا جاناتا على الدرجة نفسها من الفساد والانتهازية التي تسم أي حزب سياسي آخر. أما الفارق الحقيقي الوحيد الذي يمكن العثور عليه في «الحزب المختلف» فهو الازدراء السافر للأقليات. وحتى هنا، أرسل الحزب إشارات مختلطة. ففي عام 2004، لم يتمكن فاجبايي من مقاومة إغراء التماس أصوات المسلمين

حين لاحت الانتخابات في الأفق. وأصبح هدفاً لكثير من الدعابات التهكمية أثناء الحملة الانتخابية حين اعتمر عمامة تقليدية خضراء ووقف مع بعض الوجهاء المسلمين أمام عدسات المصورين. ومن الواضح أن الإستراتيجية فشلت، فقد خرج الحزب من السلطة. وكانت تلك نهاية غير متوقعة لحكومة بدت أنها انتقلت من قوة إلى قوة.

قبل أن انتقل إلى الهند، قال لي زميل في صحيفة فايننشال تايمز، كان واسع الاطلاع على شؤون الهند: «تذكر أن الأمور في الهند ليست جيدة أو سيئة كما تبدو في الظاهر». ومن أكثر الملامح اللافتة للانتباه في انتخابات عام 2004، تراجع حصة الأصوات التي نالها كلا الحزبين الوطنيين. في الفصل الآتي، سوف نعاين حظوظ حزب المؤتمر وأسرة نهرو - غاندي (الحاكمة). لكن في خضم الفرح العارم في أوساط حزب المؤتمر، تجاهل الهنود الرابح الحقيقي في انتخابات عام 2004. فقد تراجعت حصة حزب بهاراتيا جاناتا من أصوات الناخبين الهنود من 24% عام 1999 إلى 22% عام 2004. أما حصة حزب المؤتمر فقد تراجعت من 28% إلى 26%.

الرابحون الحقيقيون في انتخابات عام 2004 هم مجموعات عديدة من أحزاب الطبقات الدنيا والأحزاب الإقليمية، التي تستمر حصتها الجمعية من التمثيل الوطني بالارتفاع لتتجاوز الآن نصف الأصوات كلها على مستوى الهند برمتها. ليس لدى أي من هذه الأحزاب برنامج اقتصادي، ولا تهتم سوى قلة قليلة منها بالسياسة الخارجية أو مبادرات السلام مع باكستان (أو الحرب معها). وفي لحظات نادرة من الأزمة الوطنية امتلك حزب بهاراتيا جاناتا القدرة على مغالبة الفوارق الطبقية وتوحيد عدد كبير من الهنود حول هويتهم الدينية - لكن في لحظات نادرة فقط. وحين تعود الأمور إلى طبيعتها العادية، يرجع الهندوس إلى طبقتهم الضيقة أو هوياتهم اللغوية. وفي الصراع بين الطبقات الدنيا والقومية الهندوسية، يبدو أن للأولى اليد العليا. وربما يمكن تلخيص الوجهة السياسية الهندية بعبارة «التشظي هو القاعدة!».

أثناء حملة انتخابات عام 2004 زرت ولاية غوجارات لمراقبة حظوظ حزب بهاراتيا جاناتا في معقله. فقد قرر الحزب التقليل من أهمية القومية الهندوسية والتركيز على

نجاحه في الإصلاحات الاقتصادية: حققت الهند معدل نمو بلغ 8.4% في السنة السابقة وهدفها تحقيق النسبة ذاتها عام 2004. وعلى الرغم من المذابح التي وقعت عام 2002، كانت غوجارات واحدة من أكثر الولايات استفادة من الإصلاح الاقتصادي الليبرالي في الهند. فمستوى المعيشة فيها من أعلى المستويات في الهند. وهي أكثر ولاية معولمة. ونسبة كبيرة من أصحاب شركات البرمجيات في وادي السيليكون، والطبقة الوسطى الآسيوية المزدهرة في بريطانية أتت من غوجارات. لكن الحماس لشعار حزب بهاراتيا جاناتا الانتخابي في عام 2004، «الهند المتلألئة»، لم يكن كبيراً.

حين كنت في الولاية تمكنت من معرفة مكان لال كريشنا أدفاني، نائب رئيس الوزراء والرجل الذي صمم إستراتيجية معبد رام (القومية المتطرفة) التي أدت إلى سطوع نجم الحزب على الساحة الوطنية في الثمانينيات والتسعينيات. كان أدفاني يستظل من قيظ النهار في المسكن الرحب لأحد رجال الأعمال المحليين في أحمد أباد. وكنت قبل بضعة أسابيع قد زرت منزل أحد زعماء مجلس الهندوسية العالمي الذي عبر عن شعور بالمرارة من النبرة المعتدلة لحملة انتخابات حزب بهاراتيا جاناتا. وقال إن معبد رام ما يزال أضغاث أحلام وإنه يشعر بالاستيلاء من أدفاني وفاجبايي على وجه الخصوص: «لقد وصل كل منهما إلى السلطة على عربة رام، لكن حين جلس على العرش تخلى عن رام». كانت شكوى ردد صداها باطراد الناشطون المتشددون مع نهاية مدة حزب بهاراتيا جاناتا في السلطة: أين معبد رام؟

في عام 2002، اعتقد المتشددون القوميون الهندوس أن الحكومة وجدت أخيراً نفسها حين حشدت الأنصار والمؤيدين دعماً لناريندرا مودي، رئيس وزراء ولاية غوجارات، وسمحت له بالدعوة إلى انتخابات مفاجئة على مستوى الولاية حيث كانت الكراهية السافرة للمسلمين الموضوع المهيمن. وأثناء الحملة، قال أشوك سينغال، أحد زعماء مجلس الهندوسية العالمي: «ما حدث في غوجارات سوف يتكرر في شتى أنحاء البلاد»[17]. حقق الحزب فوزاً مريحاً في انتخابات الولاية. لكنه تأثر سلباً بالتوتر (العسكري) بين الهند وباكستان. وهذه مسألة مهمة على نحو خاص لولاية غوجارات، الواقعة على حدود

باكستان. بعد عام 2002، تراجعت حدة التوتر بين البلدين وأصبح النمو الاقتصادي والاستقرار الإقليمي من الأولويات الرئيسة للحكومة الوطنية. وأعاد الحزب أنصاره المتشددين المتعطشين لسفك الدماء إلى ثكناتهم، ليلقي إليهم بين الحين والآخر شيئاً يهدئ شهوة القتل لديهم.

أسعفني الحظ حين قابلت أدفاني صدفة أثناء انتخابات عام 2004. فخلافاً لفاجبايي، الذي وافق على مقابلتي عدة مرات، تجاهل نائب رئيس الوزراء الطلبات التي قدمتها للقائه. والآن، جلس في ركن غرفة واسعة وبدا كأنه في مجلس عزاء. وكان أرون جيتلي وزير العدل (من حزب بهاراتيا جاناتا) حاضراً أيضاً. كلا الرجلين يمثل ولاية غوجارات في البرلمان. ولد أدفاني في كراتشي، التي كانت آنذاك جزءاً من الهند الموحدة تحت حكم البريطانيين. وتمحورت حياته حول كراهية باكستان والشك في ولاء الأقليات المسلمة في الهند. وموكب عربته الرمزي عبر الهند خلف قتلى من المسلمين في كل بلدة مر بها. لكن أثناء حملة عام 2004، حتى أدفاني، مثل فاجبايي، اعتمر العمامة الإسلامية ووقف أمام عدسات المصورين.

قلت له إن منظمة المتطوعين الوطنيين اشتكت من أنه تخلى عن «سياسة الزعفران». فقال: «منذ أن كنت طفلاً، كانت المنظمة تؤثر في نفسي وفي فلسفتي. لن أتخلى عنها أبداً. لكن أعظم إنجازاتنا في السنوات الست الأخيرة كان تقوية نظام الفيدرالية في الهند. وأثبتنا أن الحكومة الائتلافية المتعددة الأحزاب تنجح فعلاً، ويمكن أن توفر حكماً مستقراً للهند. هذا هو أعظم إنجاز حققناه».

رفض الانجراف إلى السؤال المتعلق بتخليه عن القومية الهندوسية. استشهدت ببعض العبارات الفظة التي كان يقولها بحقه بعض الأعضاء في منظمة المتطوعين الوطنيين والمجلس العالمي للهندوسية. فقد توقع الكل أن يفوز حزب بهاراتيا جاناتا بانتخابات عام 2004. وتوقعوا أيضاً أن يتنحى فاجبايي، الذي يقترب من عيد ميلاده الثمانين، لمصلحة أدفاني ليشغل منصب رئيس الوزراء. لكن الوريث الشرعي، البالغ من العمر سبعة وسبعين عاماً، لا يصغر فاجبايي كثيراً، ويبدو منهكاً. فإما أنه علم أن استطلاعات الآراء كلها

غير دقيقة، وأن حزب بهاراتيا جاناتا سوف يخسر، أو أن الرجل لم يكن متحمساً للحملة الانتخابية المعتدلة التي كان يخوضها. قال معترضاً بوهن: «لا، لا أعتقد أن أعضاء من المنظمة قالوا عني هذا الكلام. ربما كانوا من أعضاء المجلس، لكن ليس المنظمة. فهي منضبطة جداً». لكن أثناء انتخابات عام 2004، أظهرت منظمة المتطوعين قدراً لافتاً من عدم الاكتراث واللامبالاة. إذ لم يتطوع سوى قلة قليلة من أعضائها، الذين يعدون بمئات الآلاف في غوجارات، في العمل الانتخابي لمصلحة حزب بهاراتيا جاناتا، وهو مصدر قوة حاسم الأهمية للحزب في الانتخابات السابقة. أرادت منظمة المتطوعين الوطنيين اللجوء إلى أسلوب الصدمة والرعب. لكن الحزب حصر رسائله الانتخابية في إطار معدلات النمو الاقتصادي والمؤشرات المرتفعة لسوق الأوراق المالية.

بعد بضعة شهور من هزيمة الحزب، اعتقل واحد من أقوى الرهبان الهندوسيين المتشددين في كانشي بتهمة ارتكاب جريمة قتل. أطلقت وسائل الإعلام على الراهب (بأسلوب درامي إلى حد ما) لقب «بابا الهندوس»، وظهر على شاشات التلفزيون في طول البلاد وعرضها وهو يُجر، مثل أي مجرم عادي، إلى سيارة الشرطة لتنقله إلى السجن. وجد أدفاني، الذي أصبح في هذه المرحلة زعيماً للمعارضة، في الحادثة فرصة مثالية لإحياء صيحة الحرب القديمة: «الهندوسية في خطر». وهذا سيساعد في تهدئة غضب المنظمة، التي ما يزال أعضاؤها ينتقدون بشدة خيانة أدفاني المزعومة للقضية القومية الهندوسية. وقيل إن «المعلم الحكيم» (اللقب الرسمي للراهب المتهم) أعد عن سابق إصرار وترصد جريمة قتل مسؤول في المعبد كان يبتزه فيما يتعلق بعلاقة أقامها مع امرأة شابة. وزعم أيضاً أنه بذر أموال حسابات معبده في كانشي، البلدة المقدسة في ولاية تاميل نادو.

حامت الشكوك أيضاً حول جايالاليثا، رئيسة وزراء الولاية، التي أمرت باعتقال الراهب، واتهمت بأنها تضخم التهم الموجهة إلى «المعلم الحكيم» لأسباب سياسية. فقد تحالف حزب جايالاليثا القومي التاميلي مع حزب بهاراتيا جاناتا في الانتخابات الوطنية. وفقد تمثيله في نيودلهي. ولم يترك له أي مقعد من مقاعد الولاية الأربعين.

وبوصفها ناشطة سياسية لا تعرف الرحمة، اعتقد كثيرون أن جايالاليثا قد رتبت عمداً أمر إذلال «المعلم الحكيم» علناً وعلى رؤوس الأشهاد لترسل إشارة تعبر عن رفضها للقومية الهندوسية وتنهي تحالفها مع حزب بهاراتيا جاناتا. وقبل بضعة أسابيع، أبطلت القانون الذي يحظر التبشير الديني (ويستهدف المبشرين المسيحيين والدعاة المسلمين) بعد مضي سنة واحدة على تطبيقه. ولكي تضيف مزيداً من الشكوك حولها، أمرت جايالاليثا باعتقال «المعلم الحكيم» في عيد الأضواء، أقدس أيام الهندوس على الأرجح. كان بمقدورها اعتقاله في يوم آخر. لكنها آثرت التلويح بالراية الحمراء أمام ثور (غربي طبعاً!).

انتهز أدفاني الفرصة لإعادة العربة الهندوسية الضخمة إلى المسار. وأعلن، هو وزملاؤه، إضراباً عن الطعام مدة ثلاثة أيام، ونظموا اعتصاماً أمام البرلمان في نيودلهي احتجاجاً على المعاملة المهينة للمعلم الحكيم. وقال زعيم حزب بهاراتيا جاناتا إن صبر الهندوس على وشك أن ينفد. وقارن اعتقال المعلم الحكيم بتعليق إنديرا غاندي للديمقراطية عام 1975: «عملية الاعتقال على درجة من الأهمية في تاريخ الأمة تماثل فرض حالة الطوارئ. حتى أثناء الحكم البريطاني، لم يتلق الزعماء الهندوس مثل هذه المعاملة»[18]. وأعد المسرح لمواجهة درامية بين المتشددين الملتزمين سياسة «الزعفران» والحكومة العلمانية الجديدة. لكن ما فاجأ حتى المنتقدين أن احتجاج أدفاني فشل: إذ لم يأت أحد إلى مكان الاعتصام. وبعد بضع ساعات عاد المصورون إلى بيوتهم.

كان من اللافت فعلاً إحجام معظم الهندوس عن التعبير عن غضبهم على اعتقال «المعلم الحكيم». وربما شعر الناس أن في التهم شيئاً من الحقيقة (لم تنظر المحاكم في القضية حتى الآن – 2006). وبغض النظر عن ذلك، وضح غياب مشاعر الغضب أمراً جوهرياً أكثر أهمية: لا يوجد بابا هندوسي لأنه لا توجد كنيسة هندوسية. فالرهبان كلهم في معبد «المعلم الحكيم» في كانشي من البراهمة، وكذلك معظم العاملين والمتعبدين. لذلك فإن المعلم الحكيم ليس سوى بابا برهمي. وبالمقابل، جذب بناء معبد رام، بوصفه موضوعاً يحشد الناس، فئات عريضة من الهندوس، نظراً لأن ملحمة رامايانا مألوفة

للطبقات جميعها. وفي خضم اندفاعه المتعجل لإثارة مشاعر القوميين الهندوس، نسي أدفاني حساباته الانتخابية الأساسية. في عام 2006، تنحى عن زعامة حزب بهاراتيا جاناتا لمصلحة راجناث سينغ، الزعيم المنتمي إلى الطبقة العليا في ولاية أوتر براديش. ومع أن سينغ أتى من الصفوف التقليدية للحزب، إلا أنه عين عدداً من زعماء الطبقات الدنيا في مناصب عليا في الحزب. وبدا أنه تعلم من بعض أخطاء سلفه.

كنت على بعد عدة أميال من «المعبد» إذا جاز التعبير. لكن استطعت تبين قاعة التأمل المهيبة وهي تتألق بالأضواء الزرقاء والبيضاء اللألاءة. أتيت لزيارة سري سري راف شنكار (غير عازف السيتار المعروف)، أبرز المبشرين الهندوس الناجحين (من السلالة الجديدة)، في «مؤسسة فن العيش» التي أنشأها في جنوب الهند. كان الوقت مساء، وتجمع المئات من الأتباع لأداء الصلاة. وعندما اقتربت بدت القاعة، التي بنيت قبل بضع سنوات، أكثر إثارة. فقد كانت بارتفاع خمسة طوابق، وشيدت من الرخام على شكل زهرة اللوتس. هنالك ألف وثماني ورقات من أوراق الورد المرمرية تغطي الجدران الخارجية، وترمز إلى تنوع الوعي الإنساني. أما تمويل هذا البناء المترف فأتى من هبات الشركات –ومعظمها من شركات البرمجيات في بنغالور القريبة– ومن عائدات المؤسسة من الدورات التعليمية والتدريبية على تقنيات التنفس والتأمل التي تحظى بشعبية كاسحة. قالت الشابة المهذبة التي عينت دليلاً لي في جولتي في المكان: «تفضل، أتيت في الوقت المناسب لمشاهدة المرشد الروحي يتلقى أسئلته المسائية».

المبنى من الداخل، الذي صمم على طراز المدرج الروماني، كان أشد إثارة وجاذبية. جلسنا على درجات مرمرية صقيلة بيضاء اللون تؤدي إلى منصة في المركز. شعرت وكأنني دخلت إلى كعكة زفاف ضخمة إذا جاز التعبير. كانت الجدران والسقوف مغطاة بأزهار اللوتس الوردية اللون. وعلى الأعمدة التي تدعم القبة حول المنصة نقشت رموز ديانات العالم الكبرى: الهلال، والصليب، ونجمة داوود. في المركز، نقش رسم أكبر حجماً من الرموز الأخرى يمثل لاكشمي، إلهة الثروة الهندوسية. وجلس على المنصة فوق ما بدا أنه عرش ضخم رجل وحيد يلبس رداء أبيض تهدلت لحيته الطويلة وخصل

حريرية من شعره على كتفيه. بدا وكأنه عيسى المسيح يصور دعاية لشامبو للشعر، هذا هو سري سري راڤي شنكار.

علا صوت التراتيل والصنجات. ثم اختتمت الصلاة بصمت خيم على القاعة. حان الوقت الذي يتلقى فيه المعلم الأسئلة. توقعت أن يسأل الحاضرون عن الوعي السامي أو الميتافيزيقيا. لكن الأسئلة تركزت غالباً على القضايا المتعلقة بكيفية التعامل مثلاً مع المراهقين المتمردين، وهل البقاء إلى وقت متأخر في الوظيفة فكرة جيدة، وما هي الطريقة الفضلى لاختيار الزوجة أو الزوج. تحدث المعلم بصوت هادئ جهوري. لكن إجاباته شابهت إجابات جدة مبرحة شيبتها السنون لا داعية له هذا العدد الكبير من الأتباع والمريدين. سألت إحدى الحاضرات كيف تعلم حقاً أنها امرأة صالحة. فقال: «لست بحاجة إلى أن تكوني طيبة ورقيقة وصالحة على الدوام». فعلت ضحكات الحاضرين. ونظرت حولي بحيرة لأرى مئات العيون اللامعة والتعابير المنتشية. السؤال اللاحق، الذي أتى بواسطة البريد الإلكتروني وقرأه أحد أتباع المعلم، اختتم بعبارة: «أحبك جداً». سأل أحدهم عن الرشوة وهل دفعها يعد خطيئة دوماً. فأجاب: «يجب ألا تتشبث بالمثالية على الدوام. في بعض الأحيان عليك أن تقدم بعض التنازلات». مرة أخرى، انفجر الحاضرون ضاحكين. بدأت أتساءل عن ماهية تقنيات التنفس في «فن العيش».

بعد انتهاء جلسة الأسئلة والأجوبة، قيل لي إن الوقت قد أزف للقائي مع سري سري راڤي شنكار. تطلب الأمر بعض الوقت لبدء المقابلة لأن حشوداً من الناس كانت تحيط بالمعلم، وتسعى للحصول على مباركته. كان نصف الحاضرين من الغربيين. صاحت امرأة شقراء الشعر حين كان يقترب من غرفة المقابلة: «هل أحصل على بركتك؟». التفت إليها ببطء ووضع يديه عليها. فأشرق وجهها بالبهجة والغبطة. أخيراً، دخل الغرفة. وبعد أن جلسنا، سألته عن رأيه باعتقال «المعلم الحكيم»، راهب كانشي. فقال: «مثل الحادث صدمة لي. وصدمني أيضاً سماع هذه المزاعم كلها عن التلاعب بأموال المعبد وعدم كفاءة إدارتها. لكنني لم أفاجأ من غياب ردة فعل الناس. فالهندوس قوم يتصفون بالوداعة ولين العريكة. نحن شعب لا نؤمن بالعنف. لكن ربما يكون للأمر علاقة أيضاً

بحقيقة أن المؤسسة لم تتصل بالناس قط. وفئات أخرى من المجتمع لا تشعر بأي رابط يجمعها بمعبده».

وخلافاً لمعبد «المعلم الحكيم» القذر في كانشي، فإن مؤسسة فن العيش نظيفة ومرتبة. وغرفة الاجتماعات فيها تبدو مثل قاعات مجالس إدارات الشركات. هناك شاشات بلورات سائلة. الناس من مختلف المشارب والديانات يتلقون الترحيب في المؤسسة. وتقبل بطاقات الائتمان الرئيسة كلها. واشتهر سري سري راي في شنكار بأنه متقشف وزاهد وليبرالي. لكن مالا يعرفه الناس عنه هو ارتباطه الوثيق بمنظمة المتطوعين الوطنيين، أو تقاسمه منصة مع زعماء المجلس العالمي للهندوسية في اللقاءات العامة. سألته عن معبد رام وهل يجب بناؤه في أيوديا. قال: «افترض أنه مسقط رأس المسيح أو محمد. ما الذي تفعله في هذه الحالة؟ هل توافق على تشييد بناء آخر فوق الموقع؟ دعونا نبني معبد رام، وليعد المسلمون ذلك علامة على حسن النية وسيكون المعبد بيتاً لله وللمسلمين جميعاً». سألته: «لله؟». أجاب: «أجل. فكما ترى، نحن نقبل السبل المؤدية إلى الله كلها. أحياناً نرغب بأن تحذو الديانات الأخرى حذونا».

ذكرتني كلمات المعلم برغبة أدفاني في رؤية مزيد من «المسلمين الهندوس» ومزيد من «المسيحيين الهندوس» وذكرتني أيضاً بمقابلة أجريتها مع نارييندرا مودي في غوجارات، قال فيها مودي: «لسنا ضد غير الهندوس. وما لا يمكن أن نقبله هو أن يقول الآخرون (نحن أنصع من اللون الأبيض. وديننا أفضل من دينكم)». ومثلما رأينا، عرض مودي رأيه بمثل هؤلاء بطرق أكثر شدة وقسوة. وتساءلت هل يؤمن المعلم حقاً بذلك كله. بدا مهذباً ورقيقاً ولطيفاً - وإن اعتقدت أنه يعاني حالة معتدلة من النرجسية. سألني: «لماذا يريد الدعاة والمبشرون دفع الناس إلى الارتداد عن دينهم. هذا أمر يدعو للأسف الشديد. يجب أن نحمي التنوع الثقافي للكوكب ولا نحاول تغييره». أشرت إلى أن مؤسسة فن العيش تزدهر في أماكن مثل كاليفورنيا، ولندن، وهولندا: «أجل، لكننا لسنا ديناً. نحن لا نحاول تغيير ديانة الناس. هناك سبل عديدة للوصول إلى الله».

بعد بضعة أسابيع تلقيت مكالمة هاتفية من رام ماداف، الناطق الرسمي باسم المتطوعين الوطنيين: «أريد التحدث معك عن سري سري راي شنكار. كنت أتحدث معه قبل أيام وقال إن مقالتك في فايننشال تايمز أصابته بخيبة الأمل. وكان يأمل أن تنقل آراءه عن التسامح والتعددية». هذا صحيح لأن المكان لم يتسع في المقالة للاستشهاد بآراء المعلم عن هذه القضايا. لكن فوجئت حين اختار منظمة المتطوعين الوطنيين -من بين المنظمات الأخرى كلها- لينقل لي شكواه. وعدت أن أنتهز الفرصة القادمة للاستشهاد بآراء المعلم بإسهاب. والآن ها أنا أفي بالوعد.

أعترف بأنني لم أشعر ببركة اللقاء مع المعلم. لكنه يمتلك فعلاً معرفة على قدر كبير من الأهمية، كحال غيره من الزعماء المشهورين للطوائف والملل الهندية، مثل ديباك تشوبرا، ورامديف، وغيرهما. ولكي يزدهر حزب بهاراتيا جاناتا ومنظمة المتطوعين الوطنيين مرة أخرى، يحتاجان إلى تعلم الدروس من السلالة الحديثة من المرشدين الروحيين - رجال الأعمال في الهند، الذين تمكنهم مهاراتهم في التسويق والعلاقات العامة من الوصول إلى الناس على مختلف مشاربهم وتوجهاتهم وخلفياتهم. ربما يكون «المعلم الحكيم» مذنباً أو غير مذنب بالتهمة، لكن من المؤكد أن بالإمكان اتهامه بفقدان الصلة مع الناس. وشخصيات مثل سري سري راي شنكار، تزداد صلة بهم. إن التحدي الذي يواجه حزب بهاراتيا جاناتا هو التعلم من الناس مثلما يفعل المعلم.

كتب سوابان داسغوبتا، أشهر المعلقين الصحفيين على القومية الهندوسية في الهند، يقول: «من الواضح تماماً أن النظام البرهمي الراسخ غير قادر على الارتقاء إلى مستوى التحدي. أما النتيجة الختامية فواضحة لا لبس فيها. هنالك تراث تقليدي مزدهر لما يمكن أن نسميه الهندوسية التبشيرية. هنالك أشباه لبات روبرتسون وبيللي غراهام في الهندوسية الحديثة. وفشل القومية الهندوسية المنظمة يكمن في عدم قدرتها على الاتصال بأتباع ومؤيدي المبشرين الأفراد»[19].

انتهت حقبة السياسة الخاضعة لهيمنة البراهمة في الهند. وأعضاء منظمة المتطوعين الوطنيين، المنتمين إلى الطبقة العليا والمؤمنين بالتضحية بالمتع المادية ونكران الذات،

Obeikandl.com

يفقدون صلتهم بواقع بلد تنتشر فيه القيم الاستهلاكية بسرعة بين الطبقات جميعها في المدن. إذ لم يعد الناس يربطون الهندوسية بصورة آلية مع الفقر أو التبتل والرهبنة. والمستهلكون، بغض النظر هل هم من البراهمة أو من أدنى الطبقات، في المدن أو في الأرياف، يصوتون لنوع جديد من الهندوسية وفقاً لمحافظهم المالية. وتحويل هذه المحافظ إلى أرباح انتخابية سيكون هدف حزب بهاراتيا جاناتا في السنوات القادمة. وعلى نحو مشابه، أصبحت نزعة «السنسكرتة»، حيث تتبنى الطبقات الدنيا أساليب عيش الطبقات العليا، ظاهرة يستفيد منها الجناح الهندوسي اليميني. ومازالت فرصة حزب بهاراتيا جاناتا كبيرة في حكم الهند مرة أخرى. فالوقت مبكر جداً على كتابة نعيه.

obeikandl.com

هوامش

1- Sen, The Argumentative Indian, p. 159 :انظر

2- قال توبكاري إن بعض التعابير والأفكار قد استعيرت من ألفن توفلر، الخبير الأمريكي المتخصص بالعلم المستقبلي، الذي شاعت قراءة كتبه، ومنها «الموجة الثالثة، و«صدمة المستقبل»، في السبعينيات والثمانينيات.

3- تتوافر للقراء المهتمين بحضارة الهارابيين مراجع عديد. يمكنهم البدء بالكتب التالية:

Romila Thapar's Early India, A. Ghosh's The City in Early Historical India, F. Braudel's A History of Early Civilisations or Basham's The Wonder That Was India.

4-مقابلة مع المؤلف، 2004.

5-Natwar Jha and N. S. Rajaram, The Deciphered Indus Script (Aditya Prakashan, New Delhi, 2000).

6-Sen, The Argumentative Indian, p. 66.

7-Basham, The Wonder That Was India, p. 32.

8-Benedict Anderson, Imagined Communities (Verso, London, 1983) p. 15.

9-Christophe Jaffrelot, The Hindu Nationalist Movement and Indian Politics, 1925 to the 1990s (Hurst & Co, London, 1996).

10-شواهد غولوالكار مأخوذة من:

Bunch of Thoughts or We, or Our Nationhood Defined.

openkanal.com

11- للتعرف على منظمة المتطوعين الوطنيين بمزيد من التفاصيل، انظر:

Walter K.Andersen and Shridhar D. Damle, The Brotherhood in Saffron: The RSS and Hindu Revivalism (Vistaat Publications, New Delhi, 1987).

12- Sen, The Argumentative Indian, p. 48.

13-على سبيل المثال لا الحصر، هنالك تقارير جامعة لمنظمة العفو الدولية، ومنظمة حقوق الإنسان، ولجنة حقوق الإنسان الوطنية (في الهند)، ومنظمة منبر المواطنين (في الهند أيضاً). جميع هذه التقارير توصلت إلى نتائج متماثلة.

14-من تقرير:

How Has the Gujarat Massacre Affected Minority Women – The Survivors Speak, in John Dayal, ed. Gujarat 2002.- Untold and Retold Stories of the Hindutva Lab (Media House, Delhi, 2002), p. 289.

15-2002/4/15 ،كما وردت في مقالة للمؤلف في صحيفة فاينشال تايمز.

16-Neena Vyas in The Hindu, October 2002.

17- Amnesty International, Public Statement 183, 16 October 2002 :انظر

18-Sift New' s, 20 November 2004.

19-Swapan Dasgupta, 'Evangelical Hinduism', Seminar, January 2005.

obeikandl.com